إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت (٢)

علمانية المدفع والإنجيل

التحالف غير المقدس بين المدفع العلماني والإنجيل المنصرين

المفكر الإسلامي
الدكتور محمد عمارة



مكتبة الإمام البخاري للنشر والتوزيع

علمانية المدفع والإنجيل

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَٱللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [الصف : ٨]

إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت

(٢)

علمانية المدفع والإنجيل

التحالف غير المقدس بين المدفع العلماني وإنجيل المنصرين

المفكر الإسلامي

الدكتور محمد عمارة





الطبعة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية
٢٦٦٤ / ٢٥ / ١٢ / ٢٠٠٧م

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر - إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

عمارة ، محمد

علمانية المدفع والإنجيل : التحالف غير المقدس بين المدفع العلماني والإنجيل التنصيري / محمد عمارة . - الإسماعيلية : مكتبة الإمام البخاري ، ٢٠٠٧م .
٨٠ ص ؛ ٢٠ سم (إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت ؛ ٢)
تدمك ٦ ٢ ٥٢ ٥٢٩١ ٩٧٧

١ - الديانات المقارنة ٢٩١
أ - العنوان

مكتبة الإمام البخاري
للنشر والتوزيع

مصر - الإسماعيلية - ٤٦ شارع الجمهورية - الدور الأرضي - بعد السنترال
ت ٠٦٤٣٣٤٣٧٤٢٣ - جوال ٠١٢٣٦٧٦٧٩٧

مقدمة

في هذا الكتاب - الذي نقدم بين يديه - دراستان :

الدراسة الأولى : عن علمانية المدفع والإنجيل ..

والدراسة الثانية : عن العلمانية بين الغرب والإسلام

ولا نجد في التقديم لهذا الكتاب أفضل من نَشْر سطور من « التقرير الرسمي » الذي وضعته لجنة من كبار المفكرين وأساتذة الجامعات البريطانيين ، يرأسها البروفسور « جوردون كونواي » مستشار جامعة « ساكس » Sussx . وكان من بين أعضائها أسقف لندن ، ورئيس تحرير صحيفة « نيو ستيتسمان » وأستاذ القانون بجامعة « سوث هامبتون » ، وممثلة عن هيئة الخدمة المدنية ، ورئيس المجلس اليهوديّ لمنع التفرقة العنصرية ، وعدد من كبار الأساتذة الجامعيين .

هذه اللجنة الرسمية التي تألفت لدراسة الموقف الغربيّ من الإسلام ... قد جاء في تقريرها الرسميّ :

« إنَّ الشائع في الثقافة الشعبية والثقافة السياسية في الغرب : أن الإسلام مصدر تهديد للدول والشعوب وللثقافة والحضارة الغربية .

وإن الفكرة السائدة : أن الإسلام تهديد رئيسيّ للسلام في العالم . وأن التعصب الإسلامي تحوّل إلى مصدر للاضطرابات والإرهاب وأنه يماثل تهديد النازية والفاشية للعالم في الثلاثينيات والتهديد

الشيوعيّ في الخمسينيات من القرن العشرين .

وإن الفكرة السائدة : أن الحرب مع الإسلام حتيمة . وأن المتعصبين الإسلاميين يزداد عددهم ، وأنهم يهدفون إلى تدمير الحضارة الغربية ، وهم سعداء لأن هذا هو « الجهاد » الذي يأمر به دينهم . وتتردد في الأدبيات الغربية عبارة : « إن قبائل أصحاب العمامات سوف تنتصر » نتيجة لرفض الغربيين الإنجاب وتزايد الحاجة إلى المهاجرين ، مما يهدد بأن تحيا الحضارة الغربية بعد ذلك بدماء غير أوربية ، وينتشر الإسلام في دول أوربا والولايات المتحدة . وقد بدأ العد التنازليّ بالسماح بتدريس القرآن في المدارس . إن الناس في الغرب يرفضون - لا شعوريًا - الانتقادات التي يوجهها المسلمون للمجتمعات الغربية وللقيم الأساسية لهذه الحضارة ، مثل الحرية ، والديمقراطية « والحداثة » وفصل الدين عن الدولة وعن السياسة . وإن تشبيه الإسلام بالشيطان ليس مقصورًا على الصحف الصغيرة ، ولكن الصحف الكبرى والكتب والمحاضرات الجامعية في الغرب تكرر عبارات الازدراء للإسلام .

وإنه من السذاجة الادعاء بعدم وجود صراع بين الغرب والإسلام اليوم ، كما كان في الماضي أيام الحروب الصليبية ، وأيام الفتوحات الإسلامية في إسبانيا ، ووصول الجيوش الإسلامية إلى

جنوب فرنسا ، وانتشار الإسلام في ألبانيا ويوغسلافيا بالغزو . وفي الوقت الحالي توجد صراعات المصالح ، ويوجد الصراع المتعلق بإسرائيل ، وبالسيطرة على البترول ، وهذه الصراعات التي تؤدي حتمًا إلى محاولة كل طرف إخضاع الآخر ، وبسببها أيضًا تتراكم المشاعر المعادية للإسلام ، ويزيد الأمر صعوبة وجود الصراع مع الإسلام في الشيشان وأفغانستان والهند ، ووجود توترات وصراعات سياسية داخلية في الدول الإسلامية ذاتها ، وينظر الغربيون إلى هذه الصراعات على أنها صراع بين الحداثة الغربية والجمود الذي يمثله الإسلام ، وحرص المسلمين على صبغ كل أمور حياتهم بالصبغة الدينية . إن العداء للإسلام حقيقة في الثقافة الغربية المعاصرة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها » [(١)] .

تلك سطور من هذا التقرير الرسميّ الغربيّ .. الذي يعلن أن العداء الغربيّ للإسلام حقيقة لا يمكن إنكارها أو تجاهلها .. وأن الإسلام هو الشيطان !! وأن المعركة ليست فقط بسبب البترول وإسرائيل .. وإنما هي بين الحداثة الغربية - التي تريد فَصْل الدين الإسلامي عن الدولة والسياسة - أي تريد فرض العلمانية على الإسلام .. وعلى المسلمين « الذين يحرصون على صبغ كل أمور حياتهم بالصبغة الدينية » .

---

(١) [صحيفة الأهرام] - مقال الأستاذ رجب البنا : « تقرير عن الإسلام والغرب » عدد ١٨ - ١١ - ٢٠٠٧م .

هكذا .. وفي هذا التقرير الرسميّ ، اتخذ الغرب الإسلام عدوا .. وجعله أخطر من النازية والشيوعية .. متجاهلين أن هذا الغرب ـ الذي يشكو من الإسلام والمسلمين ـ يملأ بلاد الإسلام بجيوشه وقواعده العسكرية ـ وليس للمسلمين في الغرب « عسكري مرور » ! ويملأ المحيطات والبحار الإسلامية بالأساطيل الحربية – وليس للمسلمين في بحار الغرب « سفينة صيد » ! .. وشركاته المتعددة الجنسيات والعابرة للقارات تنهب ثروات المسلمين ! .. وكنائس الغرب تسير في ركاب جيوش الغزو لتنصير ضحاياه ، الذين يضطرون لبيع عقائدهم لقاء كسرة خبز أو جرعة دواء !! .

فإذا ما أراد المسلمون تحرير بلادهم .. والتماس عزتهم من دينهم .. جاء الغرب بالعلمانية التي تريد تحويل الإسلام إلى مجرد « طقوس .. وتمتمات » ، ليفرضها عليهم ـ بالمدفع والإنجيل ـ بدلاً من الإسلام الذي به يؤمنون . ذلك هو موقف الغرب تجاه الإسلام .. وهذه هي معركة العلمانية الغربية مع الإسلام .. آثرنا الإشارة إليها في التقديم لهذا الكتاب . سائلين المولى ـ سبحانه وتعالى ـ أن يجعل منه كتيبة من كتائب « الجهاد الفكريّ » في معركة الذود عن حياض الإسلام .. إنه ـ سبحانه – أفضل مسئول وأكرم مجيب .

دكتور

محمد عمارة

ذو الحجة ١٤٢٨ هـ

ديسمبر ٢٠٠٧ م

علمانية المدفع والإنجيل

كأس العلمانية المسموم!

كانت العلمانية الغربية، التي عزلت السماء عن الأرض، وأحلّت « العقل والعلم والفلسفة » - أي منظومة التنوير الغربي - محلّ « الله والكنيسة واللاهوت » ، وجعلت من الحداثة « دينًا وضعيًا » أحلّته محلّ « الدين الإلهي » ..

كانت هذه العلمانية بمثابة « كأس مسموم » التي تجرعته المسيحية الغربية، فتراجعت، وأصابها الذبول والضمور والتهميش .. وبشهادة أحد الخبراء الأمريكان، عالم الاجتماع والمؤرخ « جوتفريد كورنر » : « فلقد مثلت العلمانية تراجع السلطة المسيحية، وضياع أهميتها الدينية .. وتحول معتقدات المسيحية إلى مفاهيم دنيوية .. والفصل النهائي بين المعتقدات الدينية والحقوق المدنية .. وسيادة مبدأ: دين بلا سياسة، وسياسة بلا دين .. لقد نبعت العلمانية من التنوير الغربي، وجاءت ثمرة لصراع العقل مع الدين، وانتصاره عليه، باعتباره مجرد أثر لحقبة من حقب التاريخ البشري، يتلاشى باطراد في مسار التطور الإنساني .. ومن نتائج العلمانية: فقدان المسيحية لأهميتها فقدانا كاملًا .. وزوال أهمية الدين كسلطة عامة لإضفاء الشرعية على القانون والنظام والسياسة والتربية والتعليم .. بل وزوال أهميته أيضًا

كقوة موجّهة فيما يتعلق بأسلوب الحياة الخاص للسواد الأعظم من الناس، وللحياة بشكل عام ... فسلطة الدولة، وليست الحقيقة، هي التي تصنع القانون ... وهي التي تمنح الحرية الدينية.

ولقد قدمت العلمانية الحداثة باعتبارها دينًا حلَّ محلَّ الدين المسيحي، يفهم الوجود بقوى دنيوية، هي العقل والعلم ...

لكن ... وبعد تلاشي المسيحية ... سرعان ما عجزت العلمانية عن الإجابة على أسئلة الإنسان، التي كان الدين يقدّم لها الإجابات ... فالقناعات العلمية أصبحت مفتقرة إلى اليقين. وغدت الحداثة العلمانية غير واثقة من نفسها، بل وتفككت أنساقها العقلية والعلمية عقدية ما بعد الحداثة ... فدخلت الثقافة العلمانية في أزمة بعد أن أدخلت الدين المسيحي في أزمة ... فالإنهاك الذي أصاب المسيحية أعقبه إعياء أصاب كل العصر العلماني الحديث. وتحققت نبوءة « نيتشة » [١٨٤٤ - ١٩٠٠ م] عن « إفراز التطور الثقافي الغربي لأناس يفقدون نجمهم الذي فوقهم، ويحيون حياة تافهة، ذات بعد واحد، لا يعرف الواحد منهم شيئا خارج نطاقه ».

وبعبارة « ماكس فيبر » [١٨٦٤ - ١٩٢٠ م] « لقد أصبح هناك أخصائيون لا روح لهم، وعلماء لا قلوب لهم ».

ولأن الاهتمام الإنساني بالدين لم يتلاش ، بل تزايد – وفي ظل انحسار المسيحية – انفتح باب أوربا لضروب من الروحيات وخليط من العقائد الدينية لا علاقة لها بالمسيحية ولا بالكنيسة « من التنجيم – إلى عبادة القوى الخفية – والخرافة – والاعتقاد بالأشباح – وطقوس الهنود الحمر – وروحانيات الديانات الآسيوية – والإسلام – الذي أخذ يحقق نجاحًا متزايدًا في المجتمعات الغربية ..

لقد أزالت العلمانية السيادة الثقافية للمسيحية عن أوربا – ثم عجزت عن تحقيق سيادة دينها العلماني على الإنسان الأوربي ، عندما أصبح معتقدها العلمي عتيقًا ! – ففقد الناس « النجم » الذي كانوا به يهتدون – وعد الخلاص المسيحي – ثم وعد الخلاص العلماني .. ! »(1)

تلك شهادة خبير غربي [illegible] في الدين [illegible] على خروج المسيحية الغربية بكأس العلمانية المسموم [illegible] والإعياء والتهميش .. فكان الفراغ الروحي الذي سقطت فيه الشعوب الأوربية .. وخاصة بعد إفلاس [illegible]

(1) جوتفرايد كوريتس [illegible] المسيحية [illegible]
[illegible] د. محمد عمارة [illegible]

حقائق وأرقام على أرض الواقع

وعلى أرض الواقع، وبالحقائق والأرقام

• فإن الذين يؤمنون - في أوربا - بوجود إله - مجرد وجود إله - لا يتعدون ١٤ % من الأوربيين!

• والذين يواظبون على حضور القداس بالكنيسة - مرة في الأسبوع - في فرنسا - بنت الكاثوليكية، وأكبر بلادها - أقل من ٥ % من السكان - أي أقل من ثلاثة ملايين فرنسي - أي أقل من نصف عدد المسلمين في فرنسا!..

• وفي ألمانيا، توقف القداس في ١٠٠ كنيسة من أصل ٣٥٠ كنيسة في أبرشية « إيسن » بسبب قلة الرواد. الأمر الذي ضاعف من عدد الكنائس المعروضة للبيع، والتحول إلى أغراض أخرى، من مثل مطاعم وملاهي ... وحتى المساجد! بسبب ارتفاع عدد المساجد - في ألمانيا - من ١٤١ إلى ١٨٧ في عامي سنة ٢٠٠٥م و سنة ٢٠٠٦ وحدهما. وبلغت نسبة المواليد المسلمين ١٠ % من جملة المواليد في السنوات العشر الأخيرة!

• وفي إنجلترا، أصبحت أكثر من ٦٠٠ كنيسة - أي ١٠ % من كنائس الإنجيلية - مغلقة رسمياً باعتبارها زائدة عن الحاجة، ومعروضة للبيع ... في الوقت الذي يتحدثون فيه عن أن عدد المسلمين الإنجليز

المعترفين الذين سيتولّون في العقود القادمة على تشريعهم للإنجليكانيين.

ومع أن نسبة المسلمين في إنجلترا هي ٣% من السكان، فإن المواليد الذين أطلق عليهم اسم (محمد) سنة ٢٠٠٦ م - يأتون في المرتبة الثانية بعد اسم (جاك)(١).

• وفي إيطاليا، عثر (مادونا) في إحدى الكنائس التاريخية، بعد تحويلها إلى مطعم وملهى، وبعد تحويل المذبح إلى (بار) سبيتز.

• وفي جمهورية التشيك لا يحضر القداس سوى ٣% من السكان، وبيع الكنائس التاريخية لتتحول إلى مطاعم وملاهي، ومعروض للبيع منها ١٠٠٠ كنيسة، أي نصف عدد الكنائس في جمهورية التشيك.

• وفي سنة ٢٠٠٧ م أغلقت ١١٤,٠٠٠ في فرنسا وهولندا وألمانيا والجزء الشمالي من بلجيكا والنمسا(٢).

وهذا الواقع الذي صنعته العلمانية المسيحية لأوربة هو

---

(١) صحيفة [الحياة] - في ٨ - ٥ - ٢٠٠٧ م ... (أمريكا) في ٢٧ - ٢ - ٢٠٠٧ م، ومجلة [...] لأمانة نقلاً عن صحيفة [...] ... في ٢١ - ٤ - ٢٠٠٧ م.

(٢) صحيفة [...] الفرنسية، نقلاً عن صحيفة [الدعوة الإسلامية] ... في ١ - ٨ - ٢٠٠٧ م.

الذي جعل بابا الفاتيكان «بنديكتوس السادس عشر» يعلن في كتابه «بلا جذور، الغرب، النسبية، المسيحية والإسلام» سنة ٢٠٠٦م عن مخاوفه الثلاثة

١- انقراض الأوربيين المسيحيين - وخاصة الألمان والإيطاليين والإسبان - بسبب تحلل الأسرة، وعدم الإنجاب، وزيادة نسبة الوفيات عن نسبة المواليد

٢- وحلول الهجرات المسلمة - العربية والإفريقية - محل المسيحيين الأوربيين المنقرضين!.

٣- وأن تصبح أوربا «جزءًا من دار الإسلام» في القرن الواحد والعشرين!(١).

الروح الصليبية حية ومتوقدة
في مواجهة الإسلام

هكذا صعدت العلمانية المسيحية في أوربا

لكن مؤسسات الهيمنة الاستعمارية الغربية، التي صدرت الدين

---

(١) [illegible]
[illegible] «بلا جذور، الغرب، النسبية، المسيحية، الإسلام» [illegible] سنة ٢٠٠٥ [illegible]
[illegible] صحيفة [illegible] في ٢٦
[illegible] ٢٠٠٦ [illegible] د. محمد عمارة [illegible] «الإسلام» طبعة مكتبة الشروق الدولية
القاهرة سنة ٢٠٠٧م.

واللاهوت في بلادها ، وتقلص دور الكنيسة في مجتمعاتها ، قد ظلت وفية للروح الصليبية في مواجهتها مع الإسلام والمسلمين واستمرت في استخدام الدين والكنيسة والتبشير سلاحًا في الزحف الإمبريالي على عالم الإسلام ! ..

فسلطاتها الاستعمارية تعمل على علمنة المسلمين ، لكسر شوكة المقاومة الإسلامية للاستعمار الغربي ، ولتحويل الإسلام إلى روحانية فردية معزولة عن السياسة والاجتماع ، مع فتح الأبواب والميادين للكنائس الغربية لتنصير المسلمين ، وذلك لإتمام عملية التغريب والتبعية والإلحاق ... كي يتأبد النهب الاقتصادي والمسخ الحضاري الديني الذي هو الهدف الأول للاستعمار .

فبعد ما يقرب من أربعين عامًا على انتصار الثورة الفرنسية ذات التوجُّه العلماني المتوحش ... رأينا فرنسا العلمانية وكنيستها ... تحمل الروح الصليبية حية ومتوقدة ومتحفزة في مواجهة الإسلام وأمته وحضارته ، عند احتلال فرنسا للجزائر سنة ١٨٣٠ م .

ويحكي رفاعة الطهطاوي [١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ ١٨٠١ - ١٨٧٣ م] - وكان شاهد عيان يومئذ بباريس ... كيف « أن المطران الفرنسي الكبير » لما سمع بأخذ الجزائر [أي احتلالها

سنة ١٨٣٠ م] ـ ودخل الملك « شارل العاشر » [١٧٥٧ ـ ١٨٣٦ م] الكنيسة يشكر الله على ذلك ـ [!!] جاء إليه المطران ليهنئه على هذه النصرة ، ومن جملة كلامه ـ ما معناه إنه يحمد الله على كون الملة المسيحية انتصرت نصرة عظيمة على الملة الإسلامية ، ومازالت كذلك » ![1]

فالروح الصليبية حاضرة وحاكمة في مواجهة الإسلام وأمته وعالمه وهي توحّد الدولة والكنيسة ، وهي ضد العلمانية ، كما كان الحال في العصور الأوربية الوسطى ، عندما تكون المواجهة مع الإسلام !

وبعد قرن من الزمان على احتلال فرنسا الجزائر احتفلت فرنسا العلمانية بمرور قرن على احتلالها لهذا البلد المسلم سنة ١٩٣٠ م ويومئذ لم تنس فرنسا الروح الصليبية المعادية للجزائر المسلمة ، والحاقدة على إسلام الجزائريين .. فخطب أحد كبار الساسة الفرنسيين في مهرجانات هذه الاحتفالات ، فقال :

« إننا لن ننتصر على الجزائر ماداموا يقرءون القرآن ويتكلمون العربية . فيجب أن نزيل القرآن من وجودهم ، وأن نقتلع العربية من ألسنتهم » !

(١) رفاعة الطهطاوي [الأعمال الكاملة] ج ٢ ص [illegible] دراسة وتحقيق د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

وخطب سياسي جزائري فقال: «لا تظنوا أن هذه المهرجانات من أجل بلوغنا مائة سنة في هذا الوطن، فلقد قام الرومان قبلنا فيه ثلاثة قرون، ومع ذلك خرجوا منه. ألا فلتعلموا أن مغزى هذه المهرجانات هو تشييع جنازة الإسلام بهذه الديار»!!

كما خطب أحد كرادلة الكنيسة الكاثوليكية الفرنسية - بهذه المهرجانات - فقال: «إن عهد الهلال في الجزائر قد غبر، وإن عهد الصليب قد بدأ، وإنه سيستمر إلى الأبد. وإن علينا أن نجعل أرض الجزائر مهدًا لدولة مسيحية مضاءة أرجاؤها بنور مدنية منبع وحيها الإنجيل»[1].

ولقد فطن المسلمون الجزائريون - في تجربتهم مع الاستعمار الفرنسي - إلى «أن موقف البرجوازية الفرنسية هذا هو مدعاة للعجب، فإن هذه البرجوازية نفذت حكم الإعدام في القسس، وأحرقت الكنائس، وحاولت محو الدين المسيحي في فرنسا المسيحية. أما في الجزائر، فقد اتخذت مسلكًا مخالفًا، فحولت المساجد إلى كنائس ومجدت المسيحية، واستخدمت أموال المسلمين لتنصيرهم! وهكذا أحيت الروح الصليبية عندما

(١) نقلًا عن الشيخ محمد البشير الإبراهيمي [سلسلة من أعلام الإحياء الإسلامي] ص ١٢٤، ١٢٥ طبعة مكتبة الشروق الدولية بالقاهرة سنة ٢٠٠٦م.

رفعت علم المسيحية ضد الإسلام في الوقت الذي ظلت تسخر فيه من المسيحية والإسلام في آن واحد»(١).

[illegible] أوروبا [illegible] المسيحية في الأندلس [illegible] لكنها استخدمتها في مصادرة الإسلام [illegible] الإمبريالي على بلاد المسلمين(٢).

صور من التحالف بين التبشير العلماني والتحالف الصليبي

* [illegible] على مجتمعات [illegible] المسيحية [illegible] في [illegible] العلمانية [illegible] قواعد [illegible] العسكرية [illegible] دعماً للاحتلال [illegible]

ولم ذلك بواسطة إرساليات التبشير النصراني ومدارسها وجامعاتها ومؤسساتها الثقافية [illegible] الإعلامية [illegible] في [illegible] التي [illegible] تكوين [illegible] في خدمة [illegible] في كل وقت [illegible]

(١) د. محمود قاسم [الإمام عبد الحميد بن باديس [illegible]] [illegible]

(٢) د. محمد عمارة [illegible] ص ٢٥ [illegible] ٢٠٠٦م.

تنحني لإرادته أمة متحضرة مسيحية أوروبية »(١).

* وعندما عقدت الكنائس الأمريكية مؤتمرها التنصيري الشهير مؤتمر كولورادو في مايو سنة ١٩٧٨م تكشفت فيه تجارب تنصيرية جديدة على الإسلام، فتقول في وثائق هذا المؤتمر

« إن الإسلام هو الدين الوحيد الذي تناقض مصادره الأصلية أسس النصرانية .. والنظام الإسلامي هو أكثر النظم الدينية المتناسقة اجتماعياً وسياسياً .. ونحن بحاجة إلى مئات المراكز لفهم الإسلام، وللاختراق في صدق ودهاء .. [!!] ولذلك، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين ولذلك، فعلى مديري إرساليات أمريكا الشمالية والقادة المنصرين الآخرين أن يكتشفوا ويطوروا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث وعضها المتعاظم للوصول إلى المسلمين .. لقد وطدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة في العالم الإسلامي .. إن نصارى البروتستانت في الشرق الأوسط وأفريقيا وآسيا –

---

(١) [illegible] ١٨٩٨ [illegible] القاهرة سنة ٢٠٠٧ م

منهمكون بصورة عميقة في عملية تنصير المسلمين ... ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عزلتها ، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تسعى إلى تنصيرهم ... وعلى المواطنين النصارى في البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معًا ، بروح تامة ، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين ... إذ يجب أن يتم كسب المسلمين عن طريق منصرين مقبولين من داخل مجتمعاتهم ويفضل النصارى العرب في عملية التنصير ... إن تنصير هذه البلاد سيتم من خلال النصارى المنتمين إلى الكنائس المحلية ، ويتم ذلك بعد تكوين جالية محلية نصرانية قوية ... »(١)

* وفي سبيل حرب العالم الإسلامي ، سعيد [illegible] تنصير المسلمين ، تقرّب هذه الكنائس وقدمت « [illegible] الصليبية » ، [illegible] عن وضع [illegible] ، لاستخدام [illegible] والمساعدات [illegible] تنصير الفقراء ، والمحتاجين المسلمين [illegible] والاستعمار الغربي [illegible] وحكوماته [illegible] ينهب ثروات

---

(١) [التنصير - خطة لغزو العالم الإسلامي] الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو ص ٤٥٢، ٢٢، ٢٣، ٧٨٩، ٧٩٠، ٥٣، [illegible] ٨٤٥ طبعة مركز دراسات العالم الإسلامي [illegible] م

المسلمين ، ويحوّل جماهيرهم إلى فقراء ومعدمين ... والكنائس الدول الاستعمارية - تحت حماية المدافع الاستعمارية - تستخدم كسرة الخبز وجرعة الدواء لتحويل هؤلاء الفقراء المعدمين عن دين الإسلام إلى النصرانية الغربية !

وهكذا تؤدي بنية التحالف عبر المقدس بين « المشروع العلماني » مع « التحالف التنصيري » !

نعم ... صرّحت وعقدت هذه الكنائس بهذه « المسكونية المقدسة » فقالت ... في وثائق مؤتمر « كولورادو » :

« لكي يكون هناك تحوّل إلى النصرانية ، فلابدّ من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس - أفرادًا وجماعات - خارج حالة التوازن التي اعتادوها ! وقد تأتي هذه الأمور على شكل عوامل طبيعية ، كالفقر والمرض والكوارث والحروب ، وقد تكون معنوية ، كالتفرقة العنصرية ، أو الوضع الاجتماعي المتدني وفي غياب مثل هذه الأوضاع المهيئة فلن تكون هناك تحولات كبيرة إلى النصرانية ! ولذلك ، فإن تقديم العون لذوي الحاجة قد أصبح أمرًا مهمًا في عملية التنصير !! وإن إحدى معجزات عصرنا ، أن احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد تحدت موقف حكوماتها التي كانت تناهض العمل التنصيري ، فأصبحت

أكثر تقبلاً للنصارى»[1]

«فالمدفع» العلماني الاستعماري [illegible] في عالم الإسلام، [illegible] في سبيل [illegible] الشعوب الإسلامية [illegible] الأبواب [illegible] الإرساليات [illegible] كي [illegible] المسيح، كي [illegible] حرية دون [illegible]»

* ولقد وضع هذا المخطط .. وهذه «المكيافيلية الصليبية» في الممارسة والتطبيق

• فهذه الكنائس الأمريكية، التي تتحكم في القوة الأمريكية [illegible] بواسطة «[illegible]» و«[illegible]» و«[illegible]»، [illegible] كلية [illegible] التي أقامت في [illegible] «قاعدة [illegible]» [illegible] القواعد العسكرية الأمريكية التي أقامتها فيها منذ سنة ١٩٤٥ م.

[illegible] «كنيسة [illegible]» [illegible] الأمريكي [illegible] في [illegible].

(١) مصدر سابق ص ٤٢١ [illegible]

ولعداء الإسلامي على وجه الخصوص، حتى أن عدد المنصرين الكوريين قد بلغ المرتبة الثانية بعد المنصرين الأمريكان على النطاق العالمي!! . وبقيادة الأمريكان الأمريكية - المفترض أنها علمانية - ترامن عمل المنصرين الكوريين والجنود الكوريين مع عمل المنصرين الأمريكيين والجنود الأمريكيين حيثما وجد النفوذ الأمريكي بالبلاد المسلمين من العراق إلى أفغانستان، وحتى في مناطق النفوذ والهيمنة الأمريكية.

ولإيضاح هذه الحقيقة - التي يجهلها أو يتجاهلها الكثيرون - فإن هذا الفرع الكوري للكنائس الأمريكية: كنيسة سايمل Church Saemmul - لم تقف عند تنصير الكوريين وتحويلهم عن دياناتهم البوذية والكونفوشية فحسب، وإنما شاركت مع أمريكا في التنصير العالمي. فأرسلت ١٦٠٠٠ مُنصِّر كوري إلى الدول الآسيوية، وكان نصيب البلاد الإسلامية ٢٥ % من هؤلاء المنصرين الكوريين!.

ولقد كان نصيب أفغانستان ملحوظًا في هذا الجهد التنصيري بعد الغزو الأمريكي. فالأفغانستان سنة ٢٠٠١م قد قضى على مقومات الأمن المدني والصحي للشعب الأفغاني، ولم يعش في تلك البلاد سوى زراعة

المحدودة – التي تضاعفت مساحتها ثلاث مرات !

وفي ظلّ هذا الفقر المدقع – الذي ضاعفته [illegible] « [illegible]

[illegible] « الإنجيل » مع كسرة خبز وجرعة دواء

وشهيرة تلك الأزمة التي تعرضت لها [illegible] في ١٩ يوليو

سنة ٢٠٠٧ م ، عندما أسرت حركة طالبان « ٢٣ » مُنصِّرًا

كوريًا كانوا يعملون على تنصير المسلمين في أفغانستان

التي تعيش في [illegible] ويحملون صحائفهم

يقولون « إني الآن أفهم حب يسوع هاللويا إني الآن نظيف – [وكأن الإسلام هو القذارة] وقد أصبحت شخصا آخر ، آمين » ! .

وقد قامت حركة طالبان بإعدام أحد هؤلاء المنصِّرين ، القس « [illegible] هيونج كو » Pastor Hyun Kuac في ٢٦ يوليو سنة ٢٠٠٧م

ثم أفرجت عن [illegible] الباقين [illegible]

وبعد تعهّد الحكومة الكورية الجنوبية في ٢١ يوليو سنة ٢٠٠٧م بمنع سفر المنصِّرين إلى أفغانستان ، وسحب جنودها من هناك مع نهاية سنة ٢٠٠٧ م . كذلك [illegible] الحكومة الأفغانية أن [illegible] من هؤلاء المنصرين الكوريين ، [illegible] على أفغانستان في [illegible] الأمريكية [illegible]

وقد امتد هذا النشاط الكوري التنصيري إلى بلاد إسلامية كثيرة ، منها الصومال والسودان وباكستان وتركيا والشيشان وداغستان .. وقد قامت الحكومة الروسية بطرد المنصّر الكوري « هري ي » من الشيشان وداغستان سنة ٢٠٠٣م .. (١) .

بل لقد أسست هذه الكنيسة الكورية ـ كنيسة صابمل ـ قرابة سبعين « مشروعًا » في مصر ، بلد الأزهر الشريف ، وهي تعمل في عشر محافظات مصرية ، تحت ستار العمل في مجالات « التكوين المهني والكهرباء والكمبيوتر والتمريض وتعليم اللغة الكورية » للمسلمين المصريين »(٢) .

وقد امتد نشاط هؤلاء المنصّرين الكوريين إلى العراق في ظل الاحتلال الأمريكي سنة ٢٠٠٣ م ، وإلى مواقع تجمعات اللاجئين العراقيين في الأردن وغيرها .. حتى لقد فضحتهم صحيفة هذه الكويتية في العراق « إيمانويل ديلي » في ١٩ مايو سنة ٢٠٠٥ م قائلة : « إنهم أتوا لتحويل مسلمين فقراء عن دينهم باستخدام بريق المال والسيارات الفارهة » .

---

(١) د. محمد سيد سليم صحيفة الأهرام القاهرة في [illegible] - ٩ - ٢٠٠٧م

(٢) المرجع السابق في ١٠ - ٩ - ٢٠٠٧م

وأشار إلى ما يحدثون بنشاطهم التنصيري من « تدمير التواصل الاجتماعي والديني بين مكونات الشعب العراقي »

ولقد أسرت المقاومة العراقية عددًا من هؤلاء المنصرين [illegible] في أبريل سنة ٢٠٠٤م، [illegible] بعد [illegible] في [illegible] سنة ٢٠٠٤م.

* أما الدور التنصيري الأمريكي المباشر في العراق فحدّث عنه ولا حرج!

فعندما قادت [illegible] الحرب [illegible] في مارس سنة ٢٠٠٣م، [illegible] « [illegible] » فهي حرب [illegible] على [illegible] في [illegible] و[illegible] والعشرين [illegible] الأمريكية [illegible]

وفي سبيل ذلك وضعت [illegible] الأمريكية مؤسسات [illegible] [illegible] التي [illegible] أوصاف « الأصولية » و « الإرهاب » و « الأشرار ».

وقد [illegible] « نيوزويك » الأمريكية [illegible] الحرب على العراق. عدد ١١ ـ ٣ ـ ٢٠٠٣م ـ أن الرئيس الأمريكي « بوش » [illegible] على العراق « هي حرب

عادلة، وفق المفهوم المسيحي. كما شرحه القديس أغسطين [٣٥٤ - ٤٧٠ م] في القرن الرابع، وكما فصله كل من القديس توما الإكويني [١٢٢٥ - ١٢٧٤ م] ومارتن لوثر [١٤٨٣ - ١٥٤٦ م] وآخرون؛ وأنه - أي بوش - قد تبنى كلمة « الأشرار » التي أطلقها على العراق وأفغانستان وإيران - وكل قوى الممانعة الإسلامية - من سفر المزامير؛ وأنه يبدأ عمله صباح كل يوم بالمطالعة - بناء على توصية القس « بيل جراهام » في كتاب القس « أوزوالد شامبرز » - الذي مات سنة ١٩١٧م وهو يعظ الجنود البريطانيين والأستراليين بالزحف على القدس لانتزاعها من أيدي المسلمين!

كما نشرت المجلة الأمريكية في ذات العدد نبأ « مؤتمر المعمداني الجنوبي » وقساوسة مبشرين من أمثال « [illegible] » [illegible] فيه ! .. وبعبارة « نيوزويك » : فإن هؤلاء المبشرين الإنجيليين لا يخفون رغبتهم في تحويل المسلمين إلى المسيحية، حتى - لا بل لاسيما - في بغداد » (١).

ولقد نشرت « نيويورك تايمز » في عددي ٥، ٦ - ٤ - ٢٠٠٣م

(١) [نيوزويك] في ١١ - ٣ - [illegible]

- أي إبان الغزو للعراق - أن جيشا من المنصرين الأمريكيين قد صحب الجيش الأمريكي الزاحف على العراق من الكويت وأن « من بين تلك الجماعات التبشيرية المصاحبة للجيش الأمريكي في حربه على العراق مبشرين تابعين للكنيسة المعمدانية والكنيسة المنهجية .. حيث ذكر ممثلوا الكنيسة المعمدانية أنه منذ بدأت الحرب الأمريكية على العراق تطوع نحو ٨٠٠ مُبشِّر من خلال مجلسها التبشيرى لتقديم الدعم الروحي والمادي لشعب العراقي باسم يسوع المسيح ! .. ومن بين هؤلاء المبشرين « فرانكلين جراهام » - الذي دشن حفل تنصيب « بوش » رئيسا لأمريكا - والذي وصف الإسلام بالشر والعنف والإرهاب ! .. ووالده « بيلي جراهام » - الذي وصف نبي الإسلام بأنه إرهابي ووثني !

ولقد أعلن « فرانكلين جراهام » - وهو بالكويت ، يهم بدخول العراق ، في ركاب الجيش الأمريكي .. « لقد جئت إلى هنا تمهيدًا لدخول العراق . ورغم أن نسبة المسلمين في العراق تتشكل ٩٧ ٪ من إجمالي تعداد السكان ، إلا أننا يجب ألا ننسى أن المسيحية سبقت الإسلام في دخول العراق ! .. إنني هنا لدعم مسيحيي العراق ! .. وعندما نقدم الدواء أو الطعام لغير المسيحيين

فإننا لا نفعل ذلك باسمنا ، ولكننا نفعل ذلك باسم ابن الرب !!

ولقد تحدثت « نيويورك تايمز » عدد ٦ - ٤ - ٢٠٠٣ م عن العقيدة المسيحية الصهيونية الموجهة لأركان الإدارة الأمريكية - التي شنت الحرب على العراق - والتي أعلنت « الحملة الصليبية » ضد الإسلام في ١٦ - ٩ - ٢٠٠١ م - فقالت الصحيفة الأمريكية : « إن السيد « كولن باول » يصف نفسه بأنه عاشق للطقوس الكنسية المسيحية الصهيونية . والسيدة « كونداليزا رايس » كان والدها قسيسًا بإحدى كنائس المسيحية الصهيونية بولاية ألاباما . و « ديك تشيني » يؤمن بنفس المنهج التبشيري للرئيس جورج بوش ، والقائم على فكرة أن الطريق إلى التبشيرية يبدأ بالمدفع والإنجيل !! ونفس الأمر ينطبق على وزير الدفاع « دونالد رامسفيلد » في حين تؤثر ديانة « بول ولفويتز » - اليهودية - على توجهاته السياسية . مما دفع بعض المراقبين للقول : « إن السياسة الخارجية للإدارة الأمريكية الحالية تتم صياغتها والتعبير عنها طبقًا للمعتقدات التبشيرية ، وتقسيم العالم إلى مؤمنين ووثنيين » !![1]

---

(١) [نيويورك تايمز] في ٦ - ٤ - ٢٠٠٣ م نقلًا عن [illegible]
- في ١٤ - ٤ - ٢٠٠٣ م .

هكذا استخدمت ... وتستخدم - العلمانية الغربية « المدفع والإنجيل » في مواجهة الإسلام والمسلمين !

الغرب هو الذي يعلن الحرب
على الإسلام وحضارته

إنّ الغرب ، الذي زرع ... ويزرع ... العلمانية في المجتمعات الإسلامية ، بواسطة سلطات الاستعمار المباشر ، وبواسطة المتغربين العلمانيين من أبناء جلدتنا ، الذين صنعهم على عينه في بلادنا ... هو الذي أعلن الحرب على الإسلام ، عندما جعله العدو « الخطر الأخضر » الذي أحله محل « الخطر الشيوعي الأحمر » ، بعد سقوط الشيوعية وأحزابها وحكوماتها أوائل سنة ١٩٩١ م ... لا لشيء ، إلا لاستعصاء الإسلام على العلمنة ، ومن ثمّ استعصائه على التبعية والذوبان في النموذج الحضاري الغربي ، ورفضه ... من ثمّ الاستسلام للإمبريالية الغربية ..

لقد أعلن هذا الغرب الإمبريالي الحرب على الإسلام وأمته وحضارته وعالمه كي يجرعه « كأس العلمانية المسموم » ، بعد أن همش المسيحية الغربية وأصابها بالتهرؤ والإعياء والإفلاس

وعن هذه الحقيقة كتبت مجلة [شئون دولية] - الصادرة في « كمبردج » بلندن - عدد مايو سنة ١٩٩١ م تقول : « لقد شعر

الكثيرون بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحلّ محلّ التهديد السوفيتي وبالنسبة لهذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول.

إن أوربيين كثيرين يتساءلون عما إذا كان من الممكن جعل الإسلام يقبل بقواعد المجتمع العلماني مثلما فعلت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومؤلمة؟ أم أن رسوخ الإسلام في المجال السياسي والاجتماعي يجعله يرفض القبول بالمبدأ المسيحي العربي الذي يُميِّز بين ما لله وما لقيصر، وبما لا يسمح لمعتنقيه أن يصبحوا مواطنين خاضعين للقانون بصورة يُعوّل عليها في ديمقراطية علمانية؟

إن النظرية التي يعتنقها علماء الاجتماع، والتي تقول إن المجتمع الصناعي والعلمي الحديث يقوض الإيمان الديني، صالحة على العموم. لقد تناقص التأثير السياسي والسيكلوجي للدين، عمليًا في كل المجتمعات، وبدرجات متفاوتة، وأشكال مختلفة. لكن عالم الإسلام استثناء مدهش وتام جدًّا من هذا، فلم تتم أي علمنة في عالم الإسلام.

إنَّ سيطرة الإسلام على المؤمنين به هي سيطرة قوية، هي بطريقة ما أقوى الآن عما كانت من مائة سنة مضت. إن الإسلام مقاوم للعلمنة نوعًا ما. والأمر المدهش هو أن هذا يظل صحيحًا

في ظل مجموعة محتمعة من النظم السياسية ، فهو صحيح في ظلّ نظم راديكالية (ثورية) اجتماعيًا ، وهو صحيح أيضًا في ظلّ النظم التقليدية . وهو صحيح بالنسبة إلى النظم التي تقف بين النوعين .

إنَّ وجود تقاليد محلية للإسلام . قد مكَّن العالم الإسلامي من أن يفلت من المعضلة التي أرّقت مجتمعات أخرى أثار الغرب فيها الاضطراب والإذلال : معضلة إضفاء الطابع المثالي على الغرب ومحاكاته . لقد امتلك الإسلام مقومات الإصلاح الذاتي ، باسم الإيمان المحلي ، وذلك هو التفسير الأساسي لمقاومة الإسلام المرموقة لاتجاه العلمنة ..

إنَّ الإسلام ، من بين الثقافات الموجودة في الجنوب ، هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة ، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تحدٍّ فعلي وحقيقي لمجتمعات يسودها مذهب اللاأدرية وفتور الهمة واللامبالاة ، وهي آفات من شأنها أن تؤدي إلى هلاك تلك المجتمعات ماديًا ، فضلًا عن هلاكها المعنوي .. »[1] .

وعن ذلك حقيقة : حقيقة استعصاء الإسلام على العلمنة و [illegible]

(١) مجلة [شئون عربية] [illegible] الإسلام [illegible]
[illegible]

النموذج الغربي ... وعداء الغرب للإسلام بسبب هذه الممانعة الفريدة والأكيدة. يقول المفكر الاستراتيجي الأمريكي «فوكوياما»: «إن الحداثة التي تمثلها أمريكا وغيرها من الديمقراطيات المتطورة، ستبقى القوة المسيطرة في السياسة الدولية. والمؤسسات التي تجسد مبادئ الغرب الأساسية ستستمر في الانتشار عبر العالم وهذه القيم والمؤسسات تلقى قبولاً لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية، إن لم نقل جميعها. ولكن السؤال هو – هل هناك ثقافات أو مناطق في العالم ستقاوم، أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث – بهذا المعنى الأمريكي والغربي؟[1]»

ثم يجيب «فوكوياما» على هذا السؤال الذي طرحه فيقول:

«إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة. فالعالم الإسلامي يختلف عن غيره من الحضارات في وجه واحد مهم. فهو وحده قد ولّد تكرارًا خلال الأعوام الأخيرة حركات أصولية مهمة، ترفض لا السياسات الغربية فحسب. وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة: العلمانية نفسها. وبينما تجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكي وأفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية، وتود تقليدها ـ لو أنها فقط استطاعت

ذلك . فإن الأصوليين المسلمين يرون في هذه الاستهلاكية دليلا على الانحلال الغربي » ..

ويعترف « فوكوياما » بأن هذا الاستعداد الإسلامي على نفسه ، وهذه المقاطعة الإسلامية المحددة للاستهلاكية هو ما هي سبب الحرب هي بسببها هذه الحرب على الإسلام التي تسميها قيادات الغرب بـ « الإرهاب » ! ويقول : إن المسألة ليست ـ ببساطة ـ حربًا على الإرهاب كما تظهر الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم ـ [٢٢] وليست المسألة الحقيقية ـ كما يحاول الكثير من المسلمين ـ هي السياسة الخارجية الأمريكية في فلسطين ، أو نحو العراق . إن الصراع الأساسي الذي نواجهه ، لسوء الحظ ، أوسع بكثير ، وهو مهم ، ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من الإرهابيين ، بل لمجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين ، ومن المسلمين الذين يتجاوز انتماؤهم الديني جميع القيم الأساسية الأخرى . إن الصراع الحالي ليس ـ ببساطة ـ معركة ضد الإرهاب ، ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأصولية التي تقف ضد الحداثة الغربية ، إنه يشكل تحديًا أيدلوجيًا هو « في بعض جوانبه » أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية

وإن التطور الأهم سيأتي من داخل الإسلام نفسه ، فعلى

المجتمع الإسلامي أن يقرر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وضع سلمي مع محتليه، وما عليه فيما يتعلق بعقد أساسي حول مدونة العلمانية [illegible] (١)

تهدف الحرب الصليبية الغربية المعلنة على الإسلام وأمته وحضارته والتي تقودها أمريكا بين ما يسمى بالحرب "الوقائية" ضد ما يسمى بالإرهاب .. والهدف [illegible] والأعمق هو [illegible] الإسلام على العلمانية ورفضه [illegible] الاستسلام [illegible]

نموذج الغرب العلماني في استخدام
الصليبية ضد الإسلام (١)

وإذا كان هذا هو نموذج الغرب العلماني في استخدام الصليبية سلاحا في مشروعه الإمبريالي ضد العالم الإسلامي فهذا تاريخ هذا النموذج في المشروع الإمبريالي الغربي

• الذي استخدم النصرانية الرومانية والبرجعية لقهر النصرانية الشرقية، [illegible] الإسلام، والفتوحات الإسلامية

• والذي استخدم الحملات الصليبية مدة قرنين من الزمان [٤٨٩ - ٦٩٠هـ ١٠٩٦ - ١٢٥٦م] لإعادة اختطاف الشرق من الإسلام في تلك المرحلة التاريخية الصليبية قد [illegible] [illegible] في [illegible]

(١) [illegible]

الغربية والسياسات الغربية والممارسات الغربية ومدى تناقضها مع الغربية المفترض عليها - في العقود الأخيرة . لأسباب عديدة منها الصحوة الإسلامية التي أعادت الإسلام ليكون « الفكرية والأيديولوجية » التي يواجه بها المسلمون الإمبريالية الغربية بعد سقوط الخيارات والنماذج الغربية في المجتمعات الإسلامية .

وعن هذه الحقيقة الهامة - حقيقة تزايد نفوذ الدين وتأثير الديني لدى مؤسسات سياسية الغربية - تقول مجلة [شئون دولية] « إنه من الواضح أن الدين أصبح يقتحم الشئون الدولية بصورة متزايدة ، أو بالأحرى يعيد إدخال نفسه فيها .

ويصعب أن تكون مصادفة أن الديمقراطيين المسيحيين في كل بلد أوربي موجودون على الدوام بين أشد أنصار الوحدة الأوربية حماسًا ، أو أن القادة القوميين الثلاثة الذين أرسوا أسس الاتحاد الأوربي الحالي . كونراد أديناور [١٨٧٦ - ١٩٦١ م] وألسيد دي جاسبري [١٨٨١ - ١٩٥٤ م] وروبرت شومان [١٨٨٦ - ١٩٦٣ م] - كانوا جميعهم من الديمقراطيين المسيحيين ، ومن الكاثوليك المخلصين . إن هناك انطباعا قويا بأن الإشارات إلى المسيحية - في سياق دولي - قد تضاعفت في وسائل الإعلام الغربية . ولاشك أن السبب الرئيسي في هذا هو التغيرات التي

وقعت في الاتحاد السوفيتي وأوربا الشرقية. ففي بعض بلدان أوربا الشرقية لعبت الكنيسة دورًا مهمًا في إحداث التغيير السياسي بولندا بصورة واضحة، وألمانيا الشرقية بصورة غير متوقعة، بدرجة أكبر، وكذلك تشيكوسلوفاكيا إلى حد ما وفي الاتحاد السوفيتي بدأ التغيير من أعلى، وعلى يد المثقفين العلمانيين، لكن دور المثقفين المسيحيين في مقاومة النظام، وتقدمهم لأداته لم يكن بحال من الأحوال أمرا تافها. والأمر الذي كان مدهشًا حقًا هو السرعة التي اتجه بها المجتمع والدولة على حد سواء إلى الكنيسة في بحث يائس عن شيء يملأ الفراغ الأخلاقي المروع الذي كشف عنه انهيار الأيديولوجية الشيوعية وكان لهذه الأحداث تأثير مدهش على المواقف الغربية فبدلاً من الكتلة السوفيتية اكتشف زملاء أوربيين يشاركوننا ميراثنا الحضاري والسياسي

وكان لابدَّ لأوربا التي اعتادت أن تعرّف نفسها من خلال تحديد الآخر أن تبحث عن آخر جديد يحلّ محلّ الاتحاد السوفيتي والمعسكر الشرقي بعدما انهارت أيديولوجيته، وكان هذا الآخر هو الإسلام إننا في وقت يسود فيه ضياع قوي يتضاعف الإشارات إلى المسيحية في السياق الدولي »

هكذا حللت المجلة الأكاديمية الرصينة هذا المتغير الهام

متغير عودة العامل الديني إلى السياسات العربية من جديد وبصورة ملحوظة ومؤثرة ومتزايدة .. بعد أن « كان المجتمع الدولي للقرن العشرين تسوده الثقافة العربية الحديثة . وواحدة من سماتها العلمانية »[1] .

الخلاصة

وخلاصة هذا التحليل هي :

١. عودة العامل الديني إلى الدخول والبروز والفعل والتأثير في السياسات العربية .

٢. دور المسيحية والأحزاب المسيحية الديمقراطية في تأسيس الوحدة الأوربية .

٣. دور الكنائس الأوربية في إسقاط الشيوعية ، وعودة أوربا الشرقية إلى الحضارة الغربية المسيحية اليهودية .

٤. عودة الدين كي يصبح « معياراً » في تعريف أوربا لنفسها و« الآخر » .

٥. دور هذه العوامل والعامل الديني في اختيار الغرب للإسلام عدوّاً أخضر يحلّ محلّ العدو الشيوعي الأحمر أي عودة النزعة الصليبية من جديد

(١) [شؤون دولية] مصدر سابق

إلى العلمانية الدولة ، وخاصة في المواجهة الغربية مع الإسلام.

ففي الحقبة الرومانية والبيزنطية تحالفت الوحدة بين « القيصرية » و« الكنيسة » في مواجهة الشرق ونصرانيته.

• وفي الحقبة الصليبية – بالعصور الوسطى الأوربية – توحد « أمراء الإقطاع الأوربيون » مع « الكنيسة » و« حروب صليبية » ضد الإسلام والشرق الإسلامي.

• واليوم .. وعقب سقوط « الخطر الشيوعي الأحمر » وتوحد الغرب في إطار « الحضارة المسيحية اليهودية » . وإحلال الغرب الأمريكي الإسلام وصحوته عدوًا وخطرًا « أخضر » تعود الوحدة بين مؤسسات العلمانية الغربية في المواجهة مع الإسلام . وفي مقدمة هذه المؤسسات « المؤسسات السياسية » و« الكنائس الغربية ».

• وفي ضوء هذا المتغير ، الذي يجب أن يأخذ حقه في التأمل والتحليل ، فهمنا الحديث عن وجوب جعل أوربا « ناديًا مسيحيًا » مغلقًا في وجه تركيا المسلمة ، وهو موقف يتبناه السياسي الفرنسي « جيسكار ديستان » ، واضع دستور الاتحاد الأوربي ... وفهمنا موقف الفاتيكان الرافض لدخول تركيا إلى هذا « النادي المسيحي ».

• وفهمنا ـ كذلك ـ تخلي العلمانية الفرنسية عن حيادها إزاء الأديان ، لتقف – في مسألة الحجاب – ضد الشعائر الإسلامية على

وجه خصوص [illegible] ومنهم إعلان بابا الفاتيكان [illegible] بندكت السادس عشر » عن مخاوفه الثلاثة :

١ - انقراض المسيحيين الأوربيين ديموجرافيًا

٢ - وحلول الهجرات الإسلامية العربية والإفريقية محل المسيحيين الأوربيين المنقرضين

٣ - وتحول أوربا إلى جزء من دار الإسلام في القرن الواحد والعشرين » ! (١) .

« ومنهم اتحاد المؤسسات الغربية ، والجماعات السياسية والدينية على التخويف من الإسلام [illegible] المسلمين في الغرب ، والتي تمارس التمييز العنصري ضدهم [illegible] حملات الإعلام والثقافة التي تشيع الكراهية ضد الإسلام والمسلمين [illegible] والتي تمارسها المؤسسات السياسية الغربية [illegible] تصريحات كبار الكرادلة المحرضة على الإسلام والمسلمين

« ومنكر [illegible] الإيطالي « جاكوموبيفي » [illegible] يدعو إلى « استئصال المسلمين من أوربا » ! .

فصورة أوربا والغرب [illegible] لا يمكن أن تكون متعددة الديانات [illegible] « فإما أن تتحول أوربا إلى مسيحية

(١) [illegible]

فورًا. وإلا ستكون إسلامية مؤكدًا»(١).

• والكردينال «بول بوبار» [illegible] مساعد بابا الفاتيكان، وممثل الفاتيكان الثقافي يعلن: «إن الإسلام يشكل تحديًا بالنسبة لأوربا وللغرب عمومًا»(٢).

• والمونسنيور «جوزيبي برناردينى» يقول – في حضرة بابا الفاتيكان –: «إنّ العالم الإسلامي سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط، وهو يبني المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية، بما في ذلك روما عاصمة المسيحية، فكيف يمكننا ألا نرى في ذلك برنامجًا واضحًا للتوسع، وفتحًا جديدًا»(٣).

• والحكومات الغربية – التي كانت حارسة محايدة بين الأديان – غدت حاكمة تهجم على الإسلام ورموزه ومقدساته، تحت ستار «حرية التعبير»! وبعد أن كانت شديدة [illegible] ضد الحرب [illegible] الجديدة، رأيناها تفسح المجال للمظاهرات التي تؤيد هذه الحرب [illegible] – في العديد من عواصمها ومدنها الأوربية

---

(١) صحيفة [العالم الإسلامي] مكة في ٦ - ١٠ - ٢٠٠٠م

(٢) صحيفة [الشرق الأوسط] لندن في [illegible] ١٩٩٩م

(٣) المرجع السابق في ١٣ - ١٠ - ١٩٩٩م

في سبتمبر سنة ٢٠٠٧م [illegible]

هكذا يتصاعد التحالف العلماني الصليبي العربي ضد الإسلام والمسلمين .. [illegible] في مواجهة الصحوة الإسلامية و[illegible] الإسلامي [illegible] في مؤسسات عربية [illegible] وتسعى [illegible] العربية – في سبيل استعمارها لتجديد [illegible] الإسلام [illegible] الإسلام والصحوة الإسلامية [illegible] المسلمين [illegible] [illegible] – أمة [illegible] ولا تحويل ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧] ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [الصف: ٨] ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ۝ لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٦ – ٣٧] صدق الله العظيم

✲ ✲ ✲ ✲

العلمانية بين الغرب والإسلام

نشأة العلمانية

مصطلح « العلمانية » هو ترجمة [illegible] شائعة [illegible] و[illegible]

عربي لكلمة الإنجليزية SECULARISM بمعنى الدنيوي

والعلمي [illegible] والواقعي [illegible] من الدنيا والعالم والواقع [illegible]

« المقدس » أي الديني « الكهنوتي » [illegible] عن السماء ، والمتحكم

[illegible] ، و[illegible] ، والمحرك للطبيعة وسننها ، و[illegible]

قدس [illegible] قداسة [illegible] ، وثبّت متغيراتها – العلمية والقانونية

والاجتماعية – ثبات الدين . (١)

وإن هذا هو معنى المصطلح ، في نشأته وملابساته الأوربية .

[illegible] ، و[illegible] الواقعي في تدبير العالم [illegible]

بشريعة من ورائه . فلقد كان قياس المصدر هو « العلمية » أو

« العالمانية » .. لكن صورته غير القياسية [illegible] – هي التي

قُدر لها الشيوع والانتشار [illegible] « العلمانية » . كنزعة في تدبير العالم ،

وكمذهب في المرجعية الدنيوية لشئون العمران الإنساني ، لا يمكن

فهمها [illegible] ومن ثم فهم الموقف الإسلامي منها [illegible] عن

---

(١) انظر [[illegible]] [illegible]

و [illegible]

و د. محمد البهي [[illegible]] ص [illegible] طبعة القاهرة

سنة ١٩٦٧ م

بملابسات أوربية، نشأتها في إطار الحضارة الغربية المسيحية، بحدودها الإغريقية الفلسفية، وتراثها الروماني القانوني، والإضافة المسيحية لهذه الحدود وذلك التراث.. ولذلك كان التفصيل في هذه القضايا هو مما يخرج هذه الدراسة عن نطاقها ومقاصدها.. فإننا نكتفي بالإشارة إلى بعض القضايا في شيء من الإيجاز.

لقد ظلت المسيحية، منذ نشأتها وعبر قرون طويلة من حياتها في المجتمعات الأوربية، ديناً لا دولة، وشريعة محبة لا تقدم للمجتمع مرجعية قانونية ولا نظماً للحكم.. ورسالة مكرسة لخلاص الروح، تدع ما لقيصر لقيصر وما لله لله.. وظلت سلطة الكنيسة خاصة بمملكة السماء، لا شأن لها بسلطان الأرض وقوانين تنظيم الاجتماع البشري، في السياسة والاجتماع والاقتصاد، وعلومها ومعارفها..

وعبر هذه القرون، حكمت العلاقة بين الكنيسة والدولة ـ أي بين الدين والمجتمع ـ نظرية «السيفين» Theory of the Two Swords: السيف الروحي، أي السلطة الدينية للكنيسة، والسيف الزمني، أي السلطة المدنية للدولة.

فلما حدث وتجاوزت الكنيسة حدود مملكة الروح ومملكة السماء، فاغتصبت السلطة الزمنية أيضاً، فضلاً على مدعى القداسة للدين، وثبتت متغيرات الاجتماع الإنساني ثبات الدين، فتحصنت

للمجتمعات الأوربية مرحلة الجمود والانحطاط والعصور المظلمة. وسادت في تلك المرحلة نظرية « السيف الواحد » Theory of One Sword أي السلطة الجامعة بين الديني والمدني، سواء تولاها « البابوات الأباطرة » أو الملوك الذين توجهم وباركهم البابوات. وعرف هذا النظام، في تاريخ أوربا، بنظرية الحق الإلهي للملوك Divine Right of the Kings (١).

وفي مواجهة هذا الطغيان، ورفع الانحطاط الحضاري الذي أثمرته تطبيقاته – التي قدست الملوك وحكامهم والجمود الذي ومجتمعاتها وعلومها – كانت « الثورة العلمانية » التي فتحت بها فلسفة التنوير الأوربي، وهي التي أحدثت قطيعة معرفية مع فلسفة الحكم الكهنوتي، وأسست النزعة العلمانية الحديثة على التراث الأوربي القديم وعلى عقلانية التنوير الأوربي الحديث، التي أحلت « العقل » و « التجربة » محلّ « الدين » و « اللاهوت ».

لقد ردت « الثورة العلمانية » الكنيسة إلى حدودها الأولى: خلاص الروح، ومملكة السماء، وجعل ما لقيصر لقيصر من دون الله، وجعل « العقل » و « التجربة »، دون « الدين » و « اللاهوت »، المرجع في تدبير شئون العمران الإنساني، أي عزل « السماء » عن « الأرض »

---

(١) انظر [موسوعة العلوم السياسية] المجلد الأول مادة ((حق الحكم الإلهي)) طبعة جامعة الكويت سنة ١٩٩٤ م.

انطلاقاً من فلسفة أن العالم مكتفٍ بذاته، تدبره الأسباب المخلوقة في ظواهره وقواه وطبيعته، دونما حاجة إلى رعاية إلهية أو تدبير شرعي نازل مما وراء الطبيعة والعالم.

فالعلمانية هي: جعل المرجعية في تدبير العالم إنسانية خالصة، ومن داخل العالم، دونما تدخل من شريعة سماوية هي وحي من الله المفارق لهذا العالم.. وقد عرفت العلمانية الأوربية – عبر تيار المادي الملحد – تياراً مؤمناً بالله، استطاع فلاسفته من مثل هوبز HOBBES [١٥٨٨ – ١٦٧٩م] ولوك Locke [١٦٣٢ – ١٧٠٤م] وليبنتز Leibniz [١٦٤٦ – ١٧١٦م] وروسو Rousseau [١٧١٢ – ١٧٧٨م] وليسنج Lessing [١٧٢٩ – ١٧٨١م] أن يوفقوا بين الإيمان بوجود إله خالق للعالم وبين العلمانية التي ترى العالم مكتفياً بذاته، فتحصر تدبير الاجتماع البشري في سلطة البشر المتحررة من شريعة الله.

وكان هذا التوفيق مؤسساً على التصور الأرسطي للعلاقة بين الإله والعالم.. ففي التصور الأرسطي، الواحد، المفارق للعالم، والخالق له، كمادة أودع في العالم وطبيعته الأسباب التي تدبر هذا العالم ذاتياً دونما حاجة إلى تدخل إلهي، أو رعاية إلهية فيما بعد مرحلة الخلق «فالحركة توجد في الشيء بذاته وبذاته، لا من حيث أن شيئاً خارجياً هو الذي يحدث فيه هذه الحركة»، و«العناية الإلهية موقوفة على ذاته»

ولا تدخل له في الأحداث الجزئية في العالم وصنعه"(١) فالعالم مكتفٍ بذاته، يدبره الأسباب المودعة فيه، وقد وجدت فلسفة المعرفة الحسية، الفلسفة الحسية والتجريبية، والتدبير الذي ترجعه إلى الأسباب بالعقل والتجربة، دون رعاية أو تدبير أو تدخل من السماء.. هكذا استمدت العلمانية، في تأسيس "التنوير"، على التصور الأرسطي المطلق لفعل الذات الإلهية.. فهو مجرد خالق، فرغ من الخلق، وانحصرت علاقته به، دونما رعاية أو تدبير للمخلوقات.. كالصانع للساعة، الذي أودع فيها أسباب عملها، دون حاجة لوجوده معها وهي تدور!.. وساعد العلمانية على الانتصار لهذه النزعة، التصور المسيحي للعلاقة بين الدين والدولة. فهو تصور يدع ما لقيصر لقيصر، ويقف بالدين عند خلاص الروح ومملكة السماء، دون أن يقدم شريعة للمجتمع والدولة، الأمر الذي جعل الإصلاح الديني في الكنيسة وفي الضمير الفردي "ثورة تصحيح دينية" وليس عدوانًا على الدين!

وساعدها على ذلك أيضًا أن التراث الروماني في فلسفة التشريع والتقنين، قد جعل السلطة [illegible]، عبر خصوصية الدين وأخلاقيته وشريعة السماء، هي المعيار.. فكان الطريق إلى القانون الوضعي مفتوحًا أمام العلمانية، يزكيه هذا التراث!

---

(١) د. عبد الرحمن بدوي [موسوعة الفلسفة] مادة "مذهب المؤلهة" ص [illegible] ١٠٦، طبعة بيروت سنة ١٩٨٤م.

هكذا نشأت العلمانية في سياق التنوير الوضعي الغربي، بمعنى عزل السماء عن الأرض، والتحرر من الاحتكام إلى الشرع الديني من ضوابط وحدود الشريعة الإلهية، وحصر مرجعية تدبير العالم في الإنسان، بعقله المستقل في تدبير عالمه وتجربته .. فهي ثمرة من ثمرات عقلانية التنوير الوضعي، التي أحلّت العقل والتجربة محلّ الله والدين، وهي قد قامت مع الإنسان في تدبير العالم فلسفة معرفية بالعقل والتجربة وحدهما كما قال التنوير الغربي .. فلقد كان الإنسان يحتكم إلى الله في الأيديولوجية التنويرية التي قامت فلسفتها الإنسانوية المعرفية [أي] تكمن في نقض بين عصرين من تاريخ البشرية: عصر خلاصة اللاهوتية المقدسة ومن الكوني، وعصر موسوعة الفلاسفة التنوير .. فرح أن الممكن أن يحكم كي يحيي ويكف... فقدم عصر العقل وهيمنته .. وراح عهد السلطة الإلهية يمحي ويتلاشى أمام عهد هيمنة .. وأصبح الحكم له، حقيقة الحكم وحي مشرق، وهو الحكم الأخير والنهائي للتجربة[1]، بمعنى عزل السماء عن الأرض، والدين عن الدنيا، وإحلال الإنسان في تدبير العمران البشري، محل الله ..

(١) أميل بولا [Emile Poulat] «العلمانية .. حرب ... في فرنسا ...» ... سنة ١٩٨٧م ... مجلة ... العدد ... سنة ١٩٩٣م ... ص ...

وفود العلمانية إلينا في ركاب الغزوة الاستعمارية

وقد كانت غزوة بونابرت [١٧٦٩ - ١٨٢١م] لمصر [١٢١٣هـ - ١٧٩٨م] قد مثلت بداية الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة لوطن العروبة - قلب عالم الإسلام. بعد أن مثلت [illegible] الاستعمار [illegible] هذه [illegible] عبر أربعة قرون[٢].

وإن هذه الغزوة قد تميزت عن سابقتها الصليبية [٤٨٩ - ٦٩٠هـ - ١٠٩٦ - ١٢٩١م] باستهدافها احتلال العقل، واستبدال الفكر، وتغيير الهوية - مع احتلال الأرض، ونهب الثروة، واستعباد الإنسان[١]. فكانت العلمانية واحدة من الوافد الغربي في ركاب الغزاة.

وللمرة الأولى تترجم الكلمة الفرنسية Laïque بكلمة «علماني» في المعجم الفرنسي العربي الذي صدر سنة ١٨٢٨م، والذي وضعه «لويس بقطر المصري»، الذي خدم جيش الاحتلال الفرنسي بمصر، ثم رحل معه، ليدرس العامية المصرية في مدارس باريس[٢]. ترجمت «اللائكية» بالعلمانية، من «العلم» نسبة إلى «العالم» باعتباره «الدنيا» المقابلة «للدين»[١].

---

(١) د. سيد أحمد فرج [illegible] ص ١٠١ - ١١٠ سنة ١٩٨٦م.

وفي كل موقع من بلاد الإسلام قامت فيه للاستعمار الغربي سلطة ودولة، أخذ هذا الاستعمار شيئًا فشيئًا يُحلّ شريعة [illegible] في تدبير شؤونه وحكم المجتمع وتنظيم العمران محل [illegible] الإسلامية »، وجرى تدوين القانون الوضعي [illegible] حيثما [illegible] شريعة الإسلام وفقه معاملاتها.

• ففي الجزائر وتونس، أخذ الاستعمار الفرنسي في إحلال القانون الوضعي العلماني محل الشريعة الإسلامية وقوانينها [illegible] وكانت [illegible] [illegible] قانوني بالوضع العلماني يحدث عند [illegible] [١٢٦١ - ١٣١٣هـ / ١٨٤٥ - ١٨٩٦ م] فيقول: [illegible] دولة من دول أوروبا تدخل بلدًا شرقيًا باسم الاستيلاء، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبث المدنية وتنادي أول دخولها بأنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد. ثم تأخذ في تغيير الاثنين شيئًا فشيئًا

كما تفعل فرنسا في الجزائر وتونس، حيث سنت لهم قانونًا فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامي، بل تنسخ مقابلها من أحكامه. ونشرته في البلاد، واتخذت لتنفيذه قضاة ترضاهم. ولما لم تجد معارضًا أخذت تحوّل كثيرًا من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام، توسيعًا لنطاق النسخ الديني. ولم تلبث أن

جاريا بها - [في مصر] - وأخذنا بقانون يشبهه "(١)

فالقانون العلماني يتم النسخ الديني، والمسخ لشريعة الإسلام!

ومع القانون العلماني – الوضعي – الذي لا يضبطه ولا تحكمه الشريعة، ولا يحكم حقوق الإنسان بحقوق الله وحدوده، جاءت الغزوة الاستعمارية الغربية إلى بلاد الإسلام بمفهوم الحرية الإنسانية المتحررة من الضوابط الشرعية، والمؤسس على أن الإنسان هو سيد العالم ومرجع التدبير للعمران - وبنى على المفهوم الإسلامي للاستخلاف، الذي يضبط الحرية الحقيقية بالشريعة الإلهية، التي هي معالم التدبير الإلهي للاجتماع الإنساني، وبنود عقد وعهد الاستخلاف الإلهي للإنسان...

وعن هذا المفهوم العلماني للحرية، الذي يقتضي - عبارة عبد الله النديم - "بعدم تعرض أحد لأحد في أموره الخاصة" يقول النديم - في نقده - وفي بيان الرؤية الإسلامية: "إن الحرية عبارة عن المطالبة بالحقوق، والوقوف عند الحدود. وهذا الذي نسمع به ونراه رجوع إلى البهيمية وخروج عن حد الإنسانية. إنها حرية مدنية يفر منها البهيم. ولئن كان ذلك سائغًا في أوربا، فإن لكل أمة عادات

---

(١) مجلة (الأستاذ) [illegible] ص ٥١٥، ٥١٦ [illegible] ٢٩ جمادى الثانية سنة ١٣١٠ هـ ١٧ يناير سنة ١٩٨٣ م

وروابط دينية أو بيئية. وهذه الإباحة لا تناسب أخلاق المسلمين ولا قواعدهم الدينية ولا عاداتهم. وهي لا توافق عوائد أهل الشرق ولا أديانهم. والقانون الحق هو الحافظ لحقوق الأمة من غير أن يحمي أو يغري بالحماية عليها بما يبيحه من الأحوال المحظورة عندها»[1].

بل إن تسلل القانون الوضعي الغربي، وحضارته إلى مؤسساتنا القضائية والتشريعية، قد سبق أحياناً الاحتلال العسكري المباشر والسيطرة الاستعمارية المباشرة، وذلك عندما رافق تزايد النفوذ الاستعماري في بلادنا. وأصبحت الجاليات الأجنبية فيها فكان تمهيداً للاحتلال والاستعمار[1].

ففي مصر، على عهد الخديوي سعيد [١٢٣٧ - ١٢٧٩ هـ ١٨٢٢ - ١٨٦٣ م] صدرت «إرادة»[2]. في ١٢ شعبان سنة ١٢٧٢ هـ ١٨ إبريل سنة ١٨٥٥ م. بإنشاء محكمة تجارية بمجلس تجار مختلط من المصريين والأجانب، للفصل في المنازعات التجارية التي يكون الأجانب طرفاً فيها»[3]. فبدأ الاختراق العلماني لمؤسسة القضاء. ومع تزايد نفوذ الأجانب، أصبحت للأجانب أغلبية في عضوية

---

(١) مصطفى السباعي [illegible] ص ٤٣٥ [illegible] ص ٢٠٩.

(٢) أمين سامي باشا [تقويم النيل] عهد [illegible] ص ١٦٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٣٦ م.

محكمة [قومسيون مصر]. ثلاثة مصريون ، وأربعة أجانب.[1]

وبعد أن تعددت « المحاكم القنصلية » التي يقضي فيها قضاة أجانب بالقانون الأجنبي ، في المنازعات التي يكون أحد طرفيها أجنبيًّا . حتى بلغت ـ في ظل الامتيازات الأجنبية ـ سبع عشرة محكمة . « نظمت هذه الفوضى » القانونية والقضائية سنة ١٨٧٥م بإنشاء « المحاكم المختلطة » . وهي التي تقضي في المنازعات بين المصريين والأجانب « بالقانون المدني » العلماني . واللغة الفرنسية ، وأغلبية قضاتها أجانب ، والرئاسة فيها للأجانب . وفي دائرتها الجزئية ، ذات القاضي الواحد ، ينفرد القاضي الأجنبي بالحكم ، وكذلك في دوائر الأمور المستعجلة ، والوقتية ، والبيوع ، ونزع الملكية العقارية .[2]

فتم الاختراق العلماني لمؤسستي « القضاء » و « التشريع » معًا . إذ « لم يقتصر النظام المختلط على إنشاء قضاء أجنبي ينفذ الأحكام على الرعايا الوطنيين وعلى حكومة البلاد ، بل خوّل الدول الأجنبية حق التدخل في التشريع الذي يسري على رعاياها . »[3]

---

(١) عبد الرحمن الرافعي [عصر إسماعيل] ج ١ ص ٢٤٠ ، ٢٤١ طبعة القاهرة سنة ١٩٤٨ م

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣

(٣) المرجع السابق . ج ٢ ص ٢٤٩

بل إن قضية هويديّ نفسها [illegible] المحاكم المختلطة [illegible] [illegible] Von Bemmelen قد وصف [illegible] بأنها «وليد الاغتصاب الواقع من الأقوياء على حقوق الضعفاء»، ووصف المحاكم المختلطة، وكل قضاياها بأنها «ركن قوي من أركان السيطرة الأوربية على مصر»(1).

ولم نجد في مقاومة [illegible] [illegible] ١٢١٦ - ١٢٩٠ هـ / ١٨٠١ - [illegible] [illegible] ٢٠٣ هـ [illegible] ٨٦٩ م [illegible] [illegible] وعلق على هذا الاحتراق [illegible] قائلاً:

«... مع أن المعاملات الفقهية لو انتظمت وجرى عليها العمل لما أخلّت بالحقوق، بتوقيفها على الوقت وإحالته ... ومن أمعن النظر في كتب الفقه الإسلامية ظهر له أنها لا تخلو من تنظيم الوسائل النافعة من المنافع العمومية. حيث بوبوا للمعاملات الشرعية أبواباً مستوعبة للأحكام التجارية، كالشركة،

(1) [illegible] ج ١ ص ١١٨، ٢٠٥ طبعة سنة ١٨٨٢

والمضاربة ، والقرض ، والمخابرة ، والعارية ، والصلح ، وغير ذلك . إن بحر الشريعة الغراء على تفرع مشارعه ، لم يغادر من أمهات المسائل صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وأحياها بالسقي والري ، ولم تخرج الأحكام السياسية عن المذاهب الشرعية ، لأنها أصل ، وجميع مذاهب السياسات عنها بمنزلة الفرع .. »[1] .

ثم تجد « صيحة التحذير » التي أطلقها الطهطاوي ، في مواجهة الاختراق العلماني لمؤسسات القضائية والتشريعية [illegible] بل جاء « عموم سوى الاختراق » عندما [illegible] الإنجليز مصر [١٢٩٩ هـ - ١٨٨٢ م] ففي نفس [illegible] ، عمد الاحتلال بقانون الأجنبي في عموم المحاكم الأهلية المصرية في ٢٤ جمادى الثاني سنة ١٣٠٠ هـ ، مايو سنة ١٨٨٣ م صدر القانون المدني ، والقانون التجاري ، وقانون التجارة البحري ، وقانون المرافعات [illegible] على حالها لدى كتب [illegible] في المحاكم المختلطة - وصدرت قوانين العقوبات ، وتحقيق الجنايات مع بعض التعديلات [illegible] وفي ١٣ نوفمبر سنة ١٨٨٣ م حتى كتب

(١) [الأعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوي] ج [illegible] ص ٤٤٥ ، ٣٠٤ [illegible] وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ م .

[illegible] في [illegible]

وإذا كان الطهطاوي قد [illegible] الشريعة الإسلامية [illegible]

[illegible]

الإسلامي [illegible]

[illegible] ١٣٠٦ هـ [illegible]

في [illegible] الإسلامي [illegible] الإسلامي

١ - [illegible] [[illegible] في معرفة [illegible]] في المعاملات [illegible]

٢ - وكتاب [[illegible] على مشكلات الأوقاف]

٣ - وكتاب [[illegible] في [illegible] مذهب أبي حنيفة] .

٤ - وكتاب [الأحكام الشرعية في الأحوال الشخصية] (٢)

[illegible] الإسلامية [illegible]

---

(١) [illegible]

(٢) [illegible]

غربية عن القانون ومؤسسات القضاء والتشريع في البلاد.

وعلى هذا الدرب، الذي خطه الطهطاوي "للإصلاح بالإسلام" وتجديد الدنيا بتجديد الدين، سار الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٥ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م] الذي عقد مقارنة بين المدنية الإسلامية والمدنية الأوربية "مدنية الذهب والفضة"[1]

ووصف الإسلام، الذي "ظهر، لا روحيا محروما، ولا جسدانيا جامدا، بل إنسانيا وسطا بين ذلك، آخذا من كلا القبيلين بنصيب. فتوفر له من ملاءمة الفطرة البشرية ما لم يتوفر لغيره. وصار المدرسة الأولى التي يربي فيها الراغبون على سنن المدنية. والذي جمع بين الدين والشرع فلم يعرف ما يسميه الإفرنج "تيوكراتيك" أي سلطان إلهي. وفي ذات الوقت لم يدع ما لقيصر لقيصر، بل كان من شأنه أن يكون كمالا للشخص وألفة في البيت، ونظاما للممالك، امتازت به الأمم التي دخلت فيه عن سواها ممن لم يدخل فيه"[2]

ثم حكم بأن سبيل الدين لمريد الإصلاح في المسلمين سبيل لا

---

(١) [الأعمال الكاملة] ج ٣ / ص [illegible] سنة ١٩٩٤ م

(٢) المصدر السابق، ج ٣ ص ٢٨٧ [illegible]

مدفوعة عنها، فإن إتيانهم من طرق الأدب والحكمة العارية عن صبغة الدين - [أي العلمانية] - هو بذر غير صالح للتربة، لا ينبت، ويضيع تعبه، ويخفق سعيه.. فما لم تكن المعارف والآداب مبنية على أصول الدين فلا أثر لها في النفوس.. وإذا كان الدين كافلاً بتهذيب الأخلاق، وصلاح الأعمال، وحمل النفوس على طلب السعادة من أبوابها، ولأهله من الثقة فيه ما ليس لهم في غيره، وهو حاضر لديهم، والعناء في إرجاعهم إليه أخف من إحداث ما لا إلمام لهم به، فلم العدول عنه إلى غيره؟!.. »(١)

لقد وقفت مدرسة الإحياء والتجديد الديني التي قادها جمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ - ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ - ١٨٩٧ م] والتي قاد فيها بعده محمد عبده - وحمل رسالتها [بمصر] الشيخ رشيد رضا [١٢٨٢ - ١٣٥٤ هـ ١٨٦٥ - ١٩٣٥ م] على امتداد نصف قرن.. وقفت رسالة المقاومة للاختراق العلماني، التي حملت لواءها جمعيات اليقظة الإسلامية وحركاتها، تلك التي انتقلت بهذه المقاومة بعد سقوط الخلافة [١٣٤٢ هـ ١٩٢٤ م] من إطار «الصفوة» إلى إطار «الجماهير».

* * * *

(١) المصدر السابق - ج ٣ ص ١٠٩، ٢٣١.

الأصول الإسلامية لرفض العلمانية

وإذا كان التصور الأسمى لتحقق عمل الدنيا للإيمان هو

الحياة الدنيا المرحلية والتدبير المعاش والطبيعة والعمران الإنساني

وهو التصور الذي هو بمثابة القسمة الفضلى للمشروع الذي دائمًا

فالتصور العلماني الذي تدعو من له في العلمانية ... في خدمة

فلسفة التشريع الروحانية ... التي حققت مقاصد التشريع تحقيق

المنافع والمصالح الدنيوية، دون ما تعارض مع الأخلاقيات الدينية

أو القيم الإيمانية أو السعادة الأخروية - ..

وإذا كانت هذه التصورات والمعتقدات في الموروث الحضاري

العربي، قد فتحت الطريق أمام العقل العلمي على مصادر

الكونية والحكم ... والحكم والعقل

والعلوم، بحيث ... التي تعلن ... عن الأرض، وحرر

العمران الإنساني من القيود الدينية، ومنطق حركة الإنسان في

سياسة المجتمع كما يمكن بحيث هذه المقاصد في الأوسع

التصور الأسمى لتحقق عمل الدنيا للإيمان، ومقاصد التشريع التي

تركها العقل المسلم، وفلسفة التشريع الروحانية في تحرير الدنيا

من القيم الإيمانية والمقاصد الشرعية

وإذا كان هذا هو الحال بالنسبة في النموذج الحضاري العربي

وإن أمرها ليس كذلك في السياق الإسلامي.

فالتصور الإسلامي لنطاق عمل الذات الإلهية يتعدى حدود الخلق للمخلوقات إلى حيث يكون الله - سبحانه وتعالى - أيضًا الراعي والمدبر لكل عوالم وأمم وعمران المخلوقات.

لقد سفّه القرآن الكريم التصور الوثني الجاهلي - الذي هو ذاته التصور الأرسطي - لنطاق عمل الذات الإلهية، فهو في الجاهلية يقف عند مجرد الخلق، بينما التدبير للعالم والعمران موكول - في الأرسطية - إلى الأسباب والأسباب المودعة في الطبيعة وظواهرها - وهو - في الوثنية الجاهلية - موكول إلى الشركاء والأصنام والطواغيت.

سفّه القرآن الكريم هذا التصور عندما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨] فجعل الخلق لله، والتدبير لغير الله، تصور جاهلي مرفوض ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]

بهذه القسمة. الشبيهة بالمفهوم العلماني الشهير [illegible] ما لله وما لقيصر

للجميع؟! فهي سوء حكم المحاكمين بشبههم الغرب وبرفضهم التصور

الإسلامي المطلق لعمل الذات الإلهية. وفي مقابل ذلك يقدم الإسلام

تصوره المطلق لعمل الذات الإلهية خالق كل شيء، ومدبر كل أمر،

حتى ما هو مقدور للإنسان، وداخل في نطاق قدرته وإرادته وفعله هو

فيه خليفة لله سبحانه وتعالى، يدبره الإنسان بإرادته الإلهية وتكليف

شرعي كخليفة لله مقره بشريعته التي تمثل بنود عقد وعهد

الاستخلاف، وكعمل لسنة الوجود. ونص الكتاب على هذا الوجود المطلق

في التصور الإسلامي للخلق والتدبير الحكيم: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي

خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا

مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِن بَعْدِ إِذْنِهِ ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا

تَذَكَّرُونَ﴾ [يونس: ٣] ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ

الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] ﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ۝ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي

أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ﴾ [طه: ٤٩، ٥٠]. فليس التصور

الإسلامي لمطلق عمل الذات الإلهية بمعنى تحديد نطاق عمل الله في

مجال وحده، مجال الطبيعة والعلم والأخلاق والإنسان [illegible]

[illegible] الإلهي والرعاية الإلهية هو [illegible] المخلوقات [illegible] فلكل

شيء، في هذا التصور الإسلامي، هو منه. حتى ما هو للإنسان فيه

له بحكم الاستخلاف والملكية والسيادة له ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]. ولكن هذه الآية وحدها معبرة عن إيمان المسلم بالحضور والتدبير الإلهي في كل شيء.. حتى لتبلغ الحرية الإنسانية ذروتها إذ يبلغ المؤمن ذروة العبودية لله؟!.. لقد استأثر الله، سبحانه، بالخلق والأمر، في الإيجاد والتدبير الحكيم.

واستخلف الإنسان في عمارة الأرض، فجعل له حرية في الأمر والتدبير والعمران والإرادة والقدرة.. لاستخلافه إقامة الدين وصناعة العمران وصنعه الحضارة وتحديد سياسات الاجتماع، كخلافته له ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩] ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨] ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣].

هكذا يقطع التصور الإسلامي الطريق على [illegible] التي قامت عليها العلمانية الغربية، فالحضور الإلهي بالجميع ويتوقف في قلب المسلم [illegible] مدبر لكل شيء [illegible] عند كل أمر، مع تصور عزل السماء عن الأرض وتحرير العمران الإنساني من ضوابط وحدود تدبير الله.

وكما تعبر [illegible] الحضاري عن [illegible] في

تصور الطلاق العلماني للذات الإلهية، ومن ثم في مكانة الإنسان في هذا الوجود.. كذلك تمايزت فلسفة التشريع في النسق القانوني الإسلامي، سواء في مصادر الشريعة الإسلامية وقواعدها ومقاصدها التي هي «وضع إلهي» - أو في فقه المعاملات الذي هو إبداع الفقهاء المسلمين المحكوم بمبادئ الشريعة وقواعدها وحدودها ومقاصدها - تمايزت فلسفة الإسلام في التشريع عندما ربطت «المنفعة» بـ «الأخلاق» و «المصلحة» بـ «المقاصد الشرعية» و «السعادة الدنيا» بـ «النجاة يوم الدين».. فتميزت هذه الفلسفة التشريعية الإسلامية على النقيض من القانون الوضعي العلماني الذي تقف إمكان تعايشه مع النسق التشريعي الذي يحكمه سلطان الأمة في نطاق سيادة حاكمية الوضع الإلهي المحدود بالشريعة ومبادئها وقواعدها ومقاصدها.. فالمصلحة التي يعتمدها القانون الإسلامي هي «المصلحة الشرعية المعتبرة» وليست مطلق «المصلحة» و «المنفعة» التي تربط الفقه الإسلامي حسب مصالح اللذة أو الشهوة أو مطلق المنفعة، بالمعايير الدنيوية الخالصة فقط، ذلك لأن المسلم لا يخلص لله «صلاته» و «نسكه» فقط، وإنما يخلصه، مع الصلاة والنسك، حياته ومماته ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا

أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

وهذه الحقيقة من حقائق تميز فلسفة التشريع والتقنين الإسلامية عن غيرها الرومانية والغربية، هي محل إجماع عند أهل العلم، مسلمين وغير مسلمين. ويكفي أن نشير إلى شهادة مستشرق حجة في القانون العربي العلماني وفي الفقه الإسلامي، هو «دافيد سانتلانا» David de Santillana [١٨٥٥ - ١٩٣١م]، فهو يقول عن فلسفة التشريع في القانون الوضعي الغربي: «إن معنى الفقه والقانون بالنسبة إلينا [illegible] الأسلاف مجموعة من القواعد تستند إلى أقوال الشعب، إما رأسًا أو عن طريق ممثليه وسلطانه مستمد من إرادته ولإرادته، والأخلاق البشر وعاداتهم.

فهو قانون «دنيوي» أي «علماني» خالص المدلول».

ويستطرد «سانتلانا» مقررًا هذه الفلسفة العلمانية بالفلسفة الإسلامية في التشريع، فيقول: «إلا أن التشريع الإسلامي [illegible] هو خلاف ذلك ... المحصول للقانون الإسلامي هو واجب اجتماعي وفرض ديني في الوقت نفسه، ومن ينتهك حرمته لا يأثم تجاه النظام الاجتماعي فقط، بل يقترف خطيئة دينية أيضًا. فالنظام العلماني والديني، والقانون والأخلاق، هما شكلان لا [illegible] لتلك الإرادة التي يستمد منها المجتمع الإسلامي وجوده وتعاليمه،

فكل مسألة قانونية إنما هي مسألة ضمير، والقاعدة الأخلاقية تسود القانون فتوحد بين القواعد القانونية والقواعد الأخلاقية توحيداً تاماً والأخلاق والآداب، في كل مسألة، ترسم حدود القانون فالشريعة الإسلامية شريعة دينية تعاليمها أكثر اتصالاً" (١)

وهذه الحقيقة يؤكد عليها المستشرق السويسري (مارسيل بوازار) الذي ينبه على تميز القانون الإسلامي عن القانون الوضعي الغربي في المصدر وفي المقاصد فيقول: "ومن المفيد أن نذكر فرقاً جوهرياً بين الشريعة الإسلامية والشرائع الأوربية الحديثة، سواء في مصدريهما المختلفين أو في أهدافهما النهائية. فالمصدر القانوني في الديمقراطية الغربية هو الشعب، وهدفه المحافظة على النظام في المجتمع، أما في الإسلام، فالقانون صادر عن الله، والشريعة تضع التعبير الهدف الأساسي الذي ينشده المؤمن هو تحقيق التقرب إلى الله، باحترام الوحي والتقيد به. فالشريعة في الإسلام تفرض غالباً من المعايير الأخلاقية. بينما تسمح في القانون الغربي أن يختار الناس المعايير حسب الاحتياجات والرغبات السائدة في عصرهم" (٢)

---

(١) شاخت: [القانون والمجتمع] بحث في كتاب [تراث الإسلام] ص ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣١. ترجمة جرجيس فتح الله. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢

(٢) د. محمد عمارة [الإسلام في عيون غربية] ص ٨٢، ٨٣ طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م

وهكذا تحول فلسفة [illegible] التشريع الإسلامي بين المجتمع وبين قيود [illegible] الوضعي العلماني . كما تحول [illegible] الإسلامي [illegible] إليه . وهكذا [illegible] في تكون بين المجتمع وبين قيود [illegible] وانفصالاً .

* * *

ولأن هذه هي حقيقة تميز النسق الفكري الإسلامي – المنطلق من [illegible] قرآني ومن [illegible] الإسلامي [illegible] الإسلامية لانفلات « الدولة » من « الدين » ولتحرر « المجتمع » من « شريعة » [illegible] في التراث الإسلامي من [illegible] الوافدة إلينا في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة .

فالعقد الدستوري ، الذي تقوم [illegible] الدولة ، ليس مجرد تراضٍ بين « المحكومين » و « الحاكمين » كما هو الحال في [illegible] السياسي الوضعي [illegible] لابد في هذا العقد الدستوري ، لكي يكون إسلامياً ، من أن يكون [illegible] فيه [illegible] الوحي الإلهي [illegible] الإسلامية [illegible] العقد الدستوري [illegible] شرعي . [illegible] التي تحدث عنها القرآن الكريم في آيات سورة النساء : ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن

إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: ٥٨ - ٦٠]

١ - فعلى ولاة الأمر أداء الأمانات لأهلها والحكم بالعدل بين الناس.

٢ - وعلى الأمة لهم الطاعة المؤمنين.

٣ - وطاعة المحكومين لأولي الأمر تابعة لطاعتهم لله وللرسول ، أي للكتاب والسنة.

٤ - والشرط الحاسم والفيصل لإيمان المؤمنين بالله واليوم الآخر أن يكون المرجعية في التقاضي الدستوري هي الكتاب والسنة ، وإلا كان هذا الإيمان زعما وادعاء ، لأنه إن لم تكن المرجعية في ذلك لله والرسول ، فهي للطاغوت !.

هكذا حسم القرآن المرجعية الإسلامية للدولة الإسلامية.

وعندما صاغ رسول الله ﷺ هذا النص القرآني - المرجعية الدينية في التقاضي الدستوري على قمة الدولة - صاغه «مادة» في أول دستور لأول دولة إسلامية - في «الصحيفة» التي مثلت دستور دولة

للمدينة المنصوص عليها في الوثيقة ومن كان بين أهل هذه الصحيفة من اشتجار يخشى فساده، فإن مرده إلى الله وإلى محمد ﷺ (١).

وأكد ذلك الخليفة الأول أبو بكر الصديق رضي الله عنه في أول خطبة له عقب اختياره وبيعته له بالخلافة، فقال: «**أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإن عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم**». فجمع الربط بين الإسلامية للدولة وبين المرجعية الدينية شرط قيام واستمرار العقد الدستوري على قاعدة ... في التجربة التاريخية - التي غلب عليها المسلمون - بعد هذا الربط في محكمة ووضوح هذه الحقيقة التي ميزت دولة الإسلام عن كثير من الدول التي عرفتها كثير من الأنساق الفكرية الأخرى.

لقد عرف التاريخ الإنساني:

١. دول الاستبداد التي تحكم بالهوى والشهوة والقوة.

٢. ودول الكهانة الدينية، والعصمة المقدسة، والحكم بالحق الإلهي والتي زعم الحكام فيها النيابة عن السماء، فصادروا سلطة الأمة من المحكومين.

٣. ودول السياسة العقلانية، ومنها الدول العلمانية، التي يدبر حكامها مجتمعاتهم بالسياسة العقلية والمصلحة المتحررة من المرجعية الدينية.

---

(١) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة ص [illegible] جمعها وحققها د. محمد حميد الله الحيدر آبادي. طبعة القاهرة سنة ١٩٥٦م.

وديمقراطيات هذا النمط من الدولة، ينوب فيها الحكام عن الأمة، مستقصين الدين والشريعة الإلهية من مرجعية السياسة والتدبير.

٤- أما الدولة الإسلامية، فإنها نمط متميز وفريد.. فهي إسلامية المرجعية، ومدنية النظم، التي تقاس إسلاميتها بمدى تحقيقها للمبادئ والمقاصد الشرعية.. وفيها تجتمع المرجعية الدينية - سيادة الشريعة - وسلطة الأمة - المستخلفة لله - ونيابة الدولة عن الأمة وبذلك تزول سلبيات دول الكهانة الدينية والدول العلمانية جميعًا.

وكما استقر هذا التميز للدولة الإسلامية في أصول الدين.. وفي دولة النبوة والخلافة الراشدة.. فلقد استقر كذلك في الفكر الإسلامي، السابق على ظهور العلمانية الغربية، وعلى عصر اختراقها للعالم الإسلامي، وعلى مفكري فكرنا الإسلامي الحديث بعد الاختراق.

ورحمه الله ابن خلدون [٧٣٢-٨٠٨هـ ١٣٣٢-١٤٠٦م] فيلسوف العمران الإسلامي والإنساني الذي صاغ كل ذلك، في دقة ووضوح، وهو يتحدث عن أنواع الحكم والسياسات والدول، فقال: « ولما كانت حقيقة الملك أنه الاجتماع الضروري للبشر ووجب أن يرجع في ذلك إلى قوانين سياسية مفروضة يسلمها الكافة وينقادون إلى أحكامها.

فإذا كانت هذه القوانين مفروضة من العقلاء وأكابر الدولة

وبصرائها كانت سياسة عقلية

وإذا كانت مفروضة من الله بشارع يقررها ويشرعها ، كانت سياسة دينية نافعة في الحياة الدنيا وفي الآخرة . وذلك أن الخلق ليس المقصود بهم دنياهم فقط ... والمقصود بهم إنما هو دينهم المفضي بهم إلى السعادة في آخرتهم . فجاءت الشرائع بحملهم على ذلك في جميع أحوالهم من عبادة ومعاملة ، حتى في الملك الذي هو طبيعي للاجتماع الإنساني ، فأجرته على منهاج الدين ليكون الكل محوطاً بنظر الشارع . فما كان منه بمقتضى القهر والتغلب فجور وعدوان ومذموم عند الشارع ، كما هو مقتضى الحكمة السياسية . وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها فمذموم أيضاً ، لأنه نظر بغير نور الله ﴿ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ ﴾ [النور : ٤٠] . لأن الشارع أعلم بمصالح الكافة فيما هو مغيب عنهم من أمور آخرتهم . وأعمال البشر كلها عائدة عليهم في معادهم ، من ملك أو غيره ... وأحكام السياسة إنما تطلع على مصالح الدنيا فقط ﴿ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ [الروم : ٧] . ومقصود الشارع بالناس صلاح آخرتهم ، فوجب بمقتضى الشرائع حمل الكافة على الأحكام الشرعية في أحوال دنياهم وآخرتهم . وكان هذا الحكم لأهل الشريعة وهم الأنبياء ومن قام فيه مقامهم ، وهم الخلفاء

فقد تبين لك من ذلك [illegible]

١ - الملك الطبيعي: هو حمل الكافة على مقتضى الغرض والشهوة

٢ - والسياسي: هو حمل الكافة على مقتضى النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية ودفع المضار

٣ - والخلافة: هي حمل الكافة على مقتضى النظر الشرعي في مصالحهم الأخروية والدنيوية الراجعة إليها، إذ أحوال الدنيا ترجع كلها عند الشارع إلى اعتبارها بمصالح الآخرة. فهي في الحقيقة خلافة عن صاحب الشرع في حراسة الدين وسياسة الدنيا به

[illegible]

بينما الدولة الإسلامية، هي التي تنطلق من الشرع، [illegible] الدنيا والآخرة جميعًا [illegible] الشرع [illegible] الإسلامية [illegible] الشرع»

وكما يقول الإمام الغزالي [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ ١٠٥٨ - ١١١١ م]: «فإن العقل مع الشرع نور على نور»[2].

• • •

(١) [المقدمة] ص ١٥٠، ١٥١. طبعة القاهرة سنة ١٣٢٢ هـ.

(٢) [الاقتصاد في الاعتقاد] ص ٣ طبعة القاهرة [illegible]

تلك هي «العلمانية»: التوجه.. والنشأة.. والملابسات..

وهكذا كان وفودها إلى عالم الإسلام، في ركاب الغزوة الاستعمارية الحديثة.. واختراقها لمؤسسات القضاء والتشريع في بلادنا..

وهذا هو موقف الإسلام والفكر الإسلامي منها، سواء في اجتهادات تيار الإحياء والتجديد الحديث.. أو في الأصول والمصنفات الإسلامية.. أو في إبداع الفكر الإسلامي الوسيط.

المتغربون... العلمانيون

أما الذين انبهروا من مثقفينا المحدثين بالعلمانية الغربية، فسوف ودعوا إلى سلوك طريقها في بلادنا، كما حدث للغربيين في بلادهم.. وقالوا عن علاقة الدين بالدولة وبالمجتمع والعمران:

«يا بعد ما بين السياسة والدين»(1)

و«إن السياسة شيء والدين شيء آخر.. وإن وحدة الدين ووحدة اللغة لا تصلحان أساسًا للوحدة السياسية ولا قوامًا لتكوين الأوطان»(2). لقد كانوا هم الذين نظروا إلى الإسلام بمنظار نصرانيّ.. فسووا في علاقة الدين بالدولة والسياسة بين الإسلام والنصرانية.. كما نظروا إلى تراثنا وحضارتنا بعين الاستشراق

---

(1) علي عبد الرازق [الإسلام وأصول الحكم] ص [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٢٥م.

(2) د. طه حسين [مستقبل الثقافة في مصر] ج ١ ص [illegible] طبعة القاهرة سنة ١٩٣٨م.

والمسلم » لقد أدرج هذا التراث وصبغ عقله بالحضارة ، بمنطق غربي . ورأوا الخلافة الإسلامية « كهنوتية مستندة للحكم بالحق الإلهي المقدس » . ورأوا في عقل المسلم عقلاً يونانياً ، منذ القدم ، وبعد تدينه بالإسلام ، لأن القرآن عندهم كالإنجيل والإسلام عندهم كالنصرانية ومحمد ﷺ عندهم كان كالمسيح من رسل ، لا شأن له بسياسة دولة أو بتدبير الاجتماع وشئون العمران ؟

لقد « ضربت » عقولهم في « مصانع الفكر الغربي » ، فقالوا إن العقل الشرقي هو ـ كالعقل الأوربي ـ مرده إلى عناصر ثلاثة « الحضارة اليونانية وما فيها من أدب وفلسفة وفن

والحضارة الرومانية وما فيها من سياسة وفقه .

والمسيحية وما فيها من دعوة إلى الخير وحث على الإحسان »

وكما لم يغير الإنجيل من الطابع اليوناني للعقل الأوربي فكذلك القرآن ، لم يغير من الطابع اليوناني للعقل الشرقي ، لأن القرآن إنما جاء متمماً ومصدقاً لما في الإنجيل [١] . وأن الحضارة الغربية والحضارة الفرنسية تقومان على أسس واحدة ، هو في بدايته الأمر الحضارة اليونانية اللاتينية [٢] ، [٣] ؟

(١) المرجع السابق . ج١ ص ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ .

(٢) د. طه حسين [من الشاطئ الآخر] مجموعة فرنسية في الثقافة والحضارة =

لقد شوهت المناهج الغربية رؤاهم ، وزيفت وعيهم ، فرأوا إسلامنا نصرانية .. وخلافتنا كهانة .. وقرآننا إنجيلاً .. وشريعتنا قانونًا رومانيًا .. ومن ثم رأوا « الحلَ العلمانيَ » هو طريقنا إلى النهوض ، كما كان حاله في سياق النهضة الأوربية الحديثة .

وإذا كان هذا « التغرب » أمرًا قابلاً « للتفسير » ، دون « التبرير » .. فإن الأمر الذي يبلغ في الغرابة حد « الكارثة » هو الموقع الذي قادت إليه العلمانية بعضًا من مثقفينا الذين تمذهبوا بمذهبها .. موقع التبعية للحضارة الغربية الغازية ، والولاء للمركزية الغربية العنصرية .. بل وإعلان التسليم والاستسلام لإرادة الغرب في استلابنا واحتوائنا وإلحاقنا بنموذجه الحضاريَ « في الإدارة .. والحكم .. والتشريع » .. وإلا فماذا تعنيه كلمات الدكتور طه حسين [١٣٠٦ - ١٣٩٣هـ ١٨٨٩ - ١٩٧٣ م] : « **لقد التزمنا أمام أوربا أن نذهب ونسلك مذهبها في الحكم ، ونسير سيرتها في الإدارة ، ونسلم طريقها في التشريع . التزمنا هذا كله أمام أوربا . وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال - [سنة ١٩٣٦ م] - ومعاهدة إلغاء الامتيازات - [سنة ١٩٣٨ م] - إلا التزامًا صريحًا قاطعًا أمام العالم المتحضر بأننا**

= بعد وفاته - جمعها وترجمها : عبد الرشيد الصادق المحمودي . ص ١٩١ ، ١٩٢ . طبعة بيروت سنة ١٩٩٠ م .

ستسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع ؟ » [١] .

إن هذا « الاعتراف » العلمانيّ « بالالتزام » بما ألزمنا به الغرب ، من أن « نسير سيرة الأوربيين في الحكم والإدارة والتشريع » .. ينقل قضية تبني العلمانية في بلادنا إلى مستوى آخر .. فالقضية تتجاوز أحيانًا دائرة الاختلاف في الفكر ، لتصب – بوعي أو بغير وعي – في خانة التفريط في الاستقلال ؟ ! .. وإذا كان الدكتور طه حسين قد تجاوز هذا الانبهار بالغرب ، والالتزام بما سعت أوربا إلى إلزامنا به [٢] .. فإن كلماته هذه تذكرنا بكلمات موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام جمال الدين الأفغاني ، التي قال فيها : « لقد علمتنا التجارب أن المقلدين من كل أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرق الأعداء إليها .. وطلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يمهدون لهم السبيل ، ويفتحون الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم » [٣] ؟ !

فإسلامية الدولة .. وإسلامية القانون ، فضلاً عن أنهما من فرائض الإسلام ، فإنهما من معالم الاستقلال الحضاريّ للأمة الإسلامية ولديار الإسلام .

---

(١) [مستقبل الثقافة في مصر] ج ١ ص ٣٦ ، ٣٧ .

(٢) انظر كتابنا [الإسلام والسياسة] ص ١١٨ – ١٣١ . طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣ م .

(٣) [الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغاني] ص ١٩٦ ، ١٩٧ . دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨ م .

موضوعات الكتاب

هذا الكتاب

إن الدعوة إلى الإسلام هي دعوة للإيمان بكل النبوات والرسالات.
فنحن عندما ندعو اليهودي إلى الإسلام، فإنما ندعوه إلى الصعود على سلم التدين، وإضافة الإيمان بالنصرانية وبالإسلام إلى إيمانه باليهودية ومقدساتها.
ونحن عندما ندعو النصراني إلى الإسلام، فإنما ندعوه إلى أن يضيف الإيمان الإسلامي إلى إيمانه باليهودية والنصرانية.
فالدعوة إلى الإسلام هي دعوة إلى كمال الدين والشرائع التي تفرعت من ملة أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام.
وعلى العكس من ذلك التهويد والتنصير.
فالنصراني الذي يرتد إلى اليهودية إنما يكفر بالنصرانية ومقدساتها، والمسلم الذي يرتد إلى النصرانية إنما يكفر بالإسلام ويرتد به.
وهكذا يكون الفارق بين الإضافة والصعود.. وبين النقص والنكوص.
وصدق الله العظيم: (قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور).

د. محمد عمارة

مكتبة الإمام البخاري
للنشر والتوزيع

